فتنة القبور

فصل من كتاب إغاثة اللهفان

للإمام ابن قيم الجوزية

إعداد
القسم العلمي بدار التوحيد

دار التوحيد للنشر

فِتْنَةُ القُبُورِ

ⓒ دار التوحيد ، ١٤٢٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ابن قيم الجوزية ، محمد بن ابي بكر
فتنة القبور. / محمد بن ابي بكر ابن قيم الجوزية .- الرياض ، ١٤٢٨هـ

..ص ؛ ..سم

ردمك: ٢-٩٨٦-٥٨-٩٩٦٠-٩٧٨

١- البرزخ ٢- الموت أ.العنوان
ديوي ٢٤٣ ١٤٢٨/٧٩٦٨

رقم الإيداع: ١٤٢٨/٧٩٦٨
ردمك: ٢-٩٨٦-٥٨-٩٩٦٠-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٣م

دار التوحيد للنشر

تليفون ٠٠٩٦٦١٢٦٧٨٨٧٨ - فاكس ٠٠٩٦٦١٤٢٨٠٤٠٤

darattawheed@yahoo.com

فتنة القبور

عن

فصل من كتاب إغاثة اللهفان

للإمام ابن قيم الجوزية

إعداد
القسم العلمي بدار التوحيد

دار التوحيد للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين وبعد:

فيسرنا - أخي القارئ - أن نقدم لك هذه الرسالة المباركة التي سميناها «فتنة القبور» والتي هي عبارة عن الفصل الرائع الذي عقده الإمام الرباني أبو عبد اللَّه محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ ضمن فصول كتابه العظيم (إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان) للكلام عن «الفتنة بالقبور».

وقد عقد ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الفصل في كتابه (إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان) ليبين أن الفتنة بالقبور لم تزل ولا تزال مصيَدة من مصائد الشيطان العظيمة، وأحبولة من أحابيله القديمة الجديدة، التي يصطاد بها عقول الجاهلين في كل زمان ومكان، فيفتنهم بها عن أعظم ما خُلقوا له، ويوقعهم بها في صورٍ عظيمة من الشرك باللَّه تعالى

وصرف العبادات - التي هي خالص حق اللَّه تعالى - لغيره من المخلوقين العاجزين، فيكونون بذلك قد ناقضوا حقيقة التوحيد الكبرى التي ما بعث اللَّه تعالى الأنبياء والرسل إلا للدعوة إليها، وهل يبقى للشيطان مطمع بعد فساد العقائد؟؟!!.

وقد بيّن فيها رَحِمَهُ اللَّهُ الدين الصحيح الذي شرعه اللَّه تعالى ورسوله ﷺ في شأن القبور، وما كان عليه هدي الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة المباركين في هذا الباب، واستوعب في ذكر أدلة ذلك، وبين دلالات النصوص القرآنية والنبوية على الحق الواضح في هذا السبيل، كما وقف رَحِمَهُ اللَّهُ وقفات مهمة مع ضلالة «تعظيم القبور» وتقديس ساكنيها ممن لا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون، مستطردا في ذكر أحوال الضالين في هذا الباب على تفاوت ضلالتهم واختلاف مراتب جهالاتهم.

وتُعَدُّ هذه الرسالة المختصرة من أنفع ما كُتب في تفنيد ضلالة «تعظيم القبور» فإذا أضفنا إلى ذلك أن مؤلفها هو الإمام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ المعروف بإمامته في الحق وقصده للسبيل وما وضع اللَّه تعالى له ولكلامه من القبول في أرضه وبين عباده كان ذلك مما يبين بحق مكانة هذه الرسالة القيمة بين مجموع ما ألف في هذا الباب من رسائل.

ولم تزل «الفتنة بالقبور» وتعظيم الموتى واقعةً في الأمم كما بين

ذلك ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في فاتحة هذه الرسالة، ولذلك بُعث الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بالتحذير منها، وحماية القلوب والعقول من الوقوع فيها، ويبتعد الناس منها ويقتربون بقدر ما يكونون عليه من قرب العهد أو بعده بآثار النبوة.

أيها القارئ الكريم: إن العقيدة الصحيحة في اللَّه تعالى والتوحيد الخالص له هو أعظم ما بُعث به الرسل والأنبياء من أمر اللَّه تعالى، وأهم ما اجتهدوا لتبليغه والدعوة إليه، ثم صيانته وحمايته من كل شوائب الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [الرعد: ٣٦]، وكلهم خاطبوا أقوامهم بلسان واحد: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۚ﴾ [الأعراف: ٥٩] أي: ما لكم من معبود غيره، فالعبادة حقُ اللَّه الذي لا يستحقه غيره ولا ينبغي لسواه، والخلق جميعًا عبيده الخاضعون له المأمورون بأمره المحكومون بمشيئته وقدره، كما قال تعالى عن ملائكته: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩].

ومن هنا فإن تحقيق التوحيد وسلامته مما يفسده أو يخدشه يجب أن يكون أعظم ما يعني المسلم في خاصة نفسه، وعموم أمته. وعلى الدعاة إلى اللَّه تعالى أن يعيدوا لقضية الإسلام الأولى (قضية التوحيد) مكانتها في أولويات الدعوة الإسلامية، وليكن شعارهم في جميع مراحل الدعوة وكافة مسارات التصحيح (التوحيد أولًا).

ذلك أن توحيد اللَّه تعالى والاعتصام به وحده هو مصدر عزِّ هذه الأمة وقوتها، وبقدر ما تكون هذه الأمة معظِّمة لله تعالى بالتوحيد، قائمة بحقه في العبادة، مستقيمة على دينه، بقدر ما تستعجل النصر وتدنيه، وبقدر ما تبتعد عن حقيقة دينه بقدر ما تؤخر النصر وتُقصيه، وقد شَرَط اللَّه التوحيد وإفراده بالعبادة وعدم الإشراك به لتحقق النصر والتمكين في الأرض كما في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

إن أعز ما يملكه المسلم هو (عقيدته وتوحيده) فمن سلم له توحيده وصفت له عقيدته فاز وأفلح ونجا، ومن تلطخ بأدران الشرك أو حلّت به بعض شوائب البدع الشركية فإنه على شفا جرف هار كما قال تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

واسمح لي - أيها القارئ العزيز - أن أُعَرِّج بك على ما كتبه الأديب المصري المعروف مصطفى لطفي المنفلوطي في مجموعته «النظرات» (٢/ ٤٥-٤٩) حين فجَعَه ما وصل إليه حال كثير من المفتونين «بتعظيم القبور» وتقديس ساكنيها يقول رَحِمَهُ اللَّهُ:

«كتب إليّ أحد علماء الهند كتابًا يقول فيه: إنه اطلع على مؤلَّف ظهر حديثًا بلغة «التاميل» وهي لغة الهنود الساكنين «بناقور» وملحقاتها بجنوب «مدراس»، موضوعه: تاريخ حياة السيد/ عبد القادر الجيلاني وذكر مناقبه وكراماته فرأى فيه من بين الصفات والألقاب التي وصف بها الكاتبُ السيِّدَ عبد القادر ولقبه بها صفات وألقابًا بمقام الألوهية أليق منها بمقام النبوة فضلًا عن مقام الولاية كقوله: «سيد السموات والأرض!!» و«النفاع الضرار!!» و«المتصرف في الأكوان!!» و«المطلع على أسرار الخليقة!!» و«محيي الموتى!!» و«مبرئ الأعمى والأبرص والأكمه!!» و«أمره من أمر الله!!» و«ماحي الذنوب!!» و«دافع البلاء!!» و«الرافع الواضع!!» و«صاحب الشريعة!!» و«صاحب الوجود التام!!» إلى كثير من أمثال هذه النعوت والألقاب.

ويقول الكاتب إنه رأى في ذلك الكتاب فصلًا يشرح فيه المؤلف الكيفية التي يجب أن يتكيف بها الزائر لقبر السيد عبد القادر الجيلاني!!!

يقول فيه: «أول ما يجب على الزائر: أن يتوضأ وضوءًا سابغًا!!!

ثم يصلي ركعتين بخشوع واستحضار!!! ثم يتوجه إلى تلك الكعبة المشرفة!!! وبعد السلام على صاحب الضريح المعظم يقول: «يا صاحب الثقلين!!! أغثني وأمدني بقضاء حاجتي وتفريج كربتي!!!". «أغثني يا محيي الدين عبد القادر، أغثني يا ولي عبد القادر، أغثني يا سلطان عبد القادر، أغثني يا باد شاه عبد القادر، أغثني يا خوجة عبد القادر!» «يا حضرة الغوث الصمداني!!، يا سيدي عبد القادر الجيلاني، عبدك!! ومريدك!! مظلوم عاجز محتاج إليك في جميع الأمور!! في الدين والدنيا والآخرة!!».

ويقول الكاتب أيضًا: إن في بلدة (ناقور) في الهند قبرًا يسمى «شاه الحميد» وهو أحد أولاد السيد عبد القادر - كما يزعمون - وأن الهنود يسجدون بين يدي ذلك القبر سجودهم بين يدي الله! وأن في كل بلدة من بلاد الهند وقراها مزارًا يمثل مزار السيد عبد القادر، فيكون القبلة التي يتوجه إليها المسلمون في تلك البلاد! والملجأ الذي يلجأون في حاجاتهم وشدائدهم إليه وينفقون من الأموال على خدمته وسدنته وفي موالده وحضراته ما لو أنفق على فقراء الأرض جميعًا لصاروا أغنياء!!».

ثم يقول المنفلوطي رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ذلك:

«هذا ما كتبه إليّ ذلك الكاتب، ويعلم اللَّه أني ما أتممت قراءة رسالته حتى دارت بي الأرض الفضاء، وأظلمت الدنيا في عيني، فما

أبصر مما حولي شيئًا، حزنًا وأسفًا على ما آلت إليه حالة الإسلام بين أقوام أنكروه بعدما عرفوه، ووضعوه بعدما رفعوه، وذهبوا به مذاهب لا يعرفها، ولا شأن له بها.

أيُّ عينٍ يَجْمل بها أن تستبْقي في محاجرها قطرةً واحدة من الدمع فلا تريقها أمام هذا المنظر المؤلم المحزن، منظر أولئك المسلمين وهم رُكّعٌ سُجّدٌ على أعتاب قبر ربما كان بينهم من هو خير من ساكنه في حياته، فأحرى أن يكون كذلك بعد مماته!

أيُّ قلبٍ يستطيع أن يستقر بين جنبي صاحبه ساعة واحدة فلا يطير جزعًا حينما يرى المسلمين أصحاب دين التوحيد أكثر من المشركين إشراكًا بالله!! وأوسعهم دائرة في تعدد الآلهة وكثرة المعبودات!!

لِمَ ينقم المسلمون التثليث من المسيحيين؟؟!

لِمَ يحملون لهم في صدورهم تلك الموجدة وذلك الضغن؟؟! وعلام يحاربونهم؟! وفيم يقاتلونهم؟! وهم لم يبلغوا من الشرك باللَّه مبلغهم ولم يغرقوا فيه إغراقهم؟!

يدين المشركون بآلهة ثلاثة ولكنهم يشعرون بغرابة هذا التعدد وبُعْدِه عن العقل، فيتأولون فيه ويقولون: إن الثلاثة في حكم الواحد!!. أما المسلمون فيدينون بآلاف من الآلهة!! أكثرها جذوع أشجار!! وجثث أموات!! وقطع أحجار!! من حيث لا يشعرون.

كثيرًا ما يضمر الإنسان في نفسه أمرًا وهو لا يشعر به، وكثيرًا ما تشتمل نفسه على عقيدة خفية لا يحس باشتمال نفسه عليها، ولا أرى مثلًا لذلك أقرب من المسلمين الذين يلتجئون في حاجاتهم ومطالبهم إلى سكان القبور، ويتضرعون إليهم تضرعهم للإله المعبود، فإذا عتب عليهم في ذلك عاتب، قالوا: إنا لا نعبدهم وإنما نتوسل بهم إلى الله!! كأنهم لا يشعرون أن العبادة ما هم فيه، وأن أكبر مظهر لألوهية الإله المعبود أن يقف عباده بين يديه ضارعين خاشعين، يلتمسون إمداده ومعونته، فهم في الحقيقة عابدون لأولئك الأموات من حيث لا يشعرون!!

جاء الإسلام بعقيدة التوحيد ليرفع نفوس المسلمين، ويغرس في قلوبهم الشرف والعزة والأنفة والحمية، وليعتق رقابهم من رق العبودية، فلا يذل صغيرهم لكبيرهم، ولا يهاب ضعيفهم قويهم، ولا يكون لذي سلطان بينهم سلطان إلا بالحق والعدل، وقد ترك الإسلام بفضل عقيدة التوحيد ذلك الأثر الصالح في نفوس المسلمين في العصور الأولى، فكانوا ذوي أنفة وعزة وإباء وغيرة، يضربون على يد الظالم إذا ظلم، ويقولون للسلطان إذا جاوز حده في سلطانه: قف مكانك، ولا تَغْلُ في تقدير مقدار نفسك، فإنما أنت عبد مخلوق لا رب معبود، واعلم أن لا إله إلا الله!

هذه صورة من صور نفوس المسلمين في عصر التوحيد، أما اليوم

وقد داخل عقيدتهم ما داخلها من الشرك الباطن تارة والظاهر أخرى فقد ذلت رقابهم، وخفت رؤوسهم، وضرعت نفوسهم، وفترت حميتهم، فَرَضُوا بخطة الخسف، واستناموا إلى المنزلة الدنيا، فوجد أعداؤهم السبيل إليهم، فغلبوهم على أمرهم، وملكوا عليهم نفوسهم وأموالهم ومواطنهم وديارهم فأصبحوا من الخاسرين.

واللَّه لن يسترجع المسلمون سالف مجدهم، ولن يبلغوا ما يريدون لأنفسهم من سعادة الحياة وهناءتها، إلا إذا استرجعوا قبل ذلك ما أضاعوه من عقيدة التوحيد، وإن طلوع الشمس من مغربها وانصباب ماء النهر في منبعه أقرب من رجوع الإسلام إلى سالف مجده ما دام المسلمون يقفون بين يدي الجيلاني كما يقفون بين يدي اللَّه ويقولون للأول كما يقولون للثاني: «أنت المتصرف في الكائنات وأنت سيد الأرضين والسموات»!!

إن اللَّه أغير على نفسه من أن يُسعد قومًا يزدرونه ويحتقرونه ويتخذونه وراءهم ظهريًا!!

فإذا نزلت بهم جائحة أو ألمت بهم مُلِمَّة ذكروا الحَجَر قبل أن يذكروه ونادَوا الجِذْع قبل أن ينادوه.

بمن أستغيث؟ وبمن أستنجد؟ ومَن الذي أدعوه لهذه الملمة الفادحة...

يا قادة الأمة ورؤساءها عذرنا العامة في إشراكها وفساد

عقائدها، وقلنا إن العامي أقصر نظرًا وأضعف بصيرة من أن يتصور الألوهية إلا إذا رآها ماثلة في النصب والتماثيل والأضرحة والقبور[1] فما عذركم أنتم وأنتم تتلون كتاب اللَّه وتقرأون صفاته ونعوته وتفهمون معنى قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]، وقوله مخاطبًا نبيّه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

إنكم تقولون في صباحكم ومسائكم وغدوكم ورواحكم:

كل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف

فهل تعلمون أن السلف الصالح كانوا يُجَصِّصُون قبرًا؟! أو يتوسلون بضريح؟! وهل تعلمون أن واحدًا منهم وقف عند قبر النبي ﷺ أو قبر أحد من أصحابه وآل بيته يسأله قضاء حاجة أو تفريج هم؟!

---

(١) لا شك أنه ليس مقصوده رَحِمَهُ اللَّهُ بعذره للعامة إقرارَهم على ما وقعوا فيه من الشرك بذلك، وإنما ليبين أن العامة فيهم من الجهل بحقيقة الدين وعدم فهمه ما ليس لدى العلماء. وإلا فإن تصور العامة للألوهية ماثلة في الأنصاب والتماثيل والأضرحة والقبور هو ما بعث اللَّه تعالى أنبياءه ورسله -عليهم الصلاة والسلام- بإنكاره وكشف ضلال أهله وبيان شركهم وكفرهم بذلك كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾.

وهل تعلمون أن الرفاعي والدسوقي والجيلاني البدوي أكرم عند اللَّه وأعظم وسيلة إليه من الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين؟! وهل تعلمون أن النبي ﷺ حينما نهى عن إقامة الصور والتماثيل نهى عنها عبثًا ولعبًا؟! أم مخافة أن تعيد للمسلمين جاهليتهم الأولى؟ وأي فرق بين الصور والتماثيل وبين الأضرحة والقبور؟؟، ما دام كل منها يجر إلى الشرك، ويفسد عقيدة التوحيد؟؟

واللَّه ما جهلتم شيئًا من هذا، ولكنكم آثرتم الحياة الدنيا على الآخرة فعاقبكم اللَّه على ذلك بسلب نعمتكم، وانتقاض أمركم، وسلط عليكم أعداءكم يسلُبون أوطانكم، ويستعْبدُون رقابكم، ويُخْرِبون دياركم، واللَّه شديد العقاب!!».

وقد انكشف لكثير من الناس ضلالة تعظيم القبور وفساد الاعتقاد فيها والتعلق بها، وظهر لعقولهم وقلوبهم سفه ما يقع فيه المعظمون للقبور من ندائها والاستغاثة والتوسل بأصحابها، فكان ذلك من فضل اللَّه علينا وعلى الناس، وهي في بعض بلاد المسلمين نارٌ أوشكت أن تخبو - بفضل اللَّه تعالى ثم بجهود المخلصين من دعاة هذه الأمة - لولا ما ظهر من بعض الدعوات المغرضة التي لا يسرها صفاء عقيدة التوحيد وسلامة معتقدات الناس، فصرنا نرى من يبث في الناس شبه التعلق بالموتى والمقبورين، ويثير لدى الجهال البواعث على تلك الضلالة، بل تعدى الأمر إلى السعي والحرص وبذل الجهد لنشر ذلك

والإغراء به، فوجب إشاعة الحق الذي لا لبس فيه والذي يزهق به الباطل كيفما كان: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

وجدير بهذه الرسالة المباركة لهذا الإمام المبارك أن تجلي الحق لباغيه والطريق الأمثل لقاصده بأقرب سبيل وأيسر طريق لمن أراد اللَّه هدايته، ومن يضلل اللَّه فما له من هاد ومن يهد اللَّه فما له من مضل.

هذا وقد قمنا بما يلزم من ضبط نص كلام الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، وتخريج أحاديثه، واجتهدنا في إضافة ما تمس إليه الحاجة أو يحصل به النفع من كلام غيره من الأئمة والعلماء حتى تُحقق هذه الرسالة مزيدًا من النفع والفائدة راجين من اللَّه تعالى التوفيق والقبول ثم من إخواننا الدعاء والتسديد.

والشكر والثناء كله - من قبلُ ومن بعدُ - لمستحقه سبحانه على ما منَّ به، ووفَّق له ويسَّره من هذا الجُهد ويسَّرَ إخراج هذه الرسالة في هذه الصورة المباركة، سائلين المولى تعالى أن ينفع بها مؤلفها وناشرها وقارئها وكل من أسهم في نشرها والانتفاع بها إنه خير مسؤول وأكرم مأمول واللَّه الموفق.

وصلى اللَّه على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

القسم العلمي بدار التوحيد

[ذكر مبتدأ أمر الفتنة بالقبور فيمن مضى من الأمم السابقة والآثار في ذلك]

فصل
ومن أعظم مكايده التي كادَ بها أكثر الناس
وما نجا منها إلا من لم يُرِدِ اللَّه تعالى فتنته

ما أوحاه قديمًا وحديثًا إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور، حتى آل الأمر فيها إلى أن عُبد أربابها من دون للَّه، وعُبدت قبورهم، واتُّخذت أوثانا، وبُنيت عليها الهياكل، وصُورت صُورُ أربابها فيها، ثم جُعلت تلك الصور أجسادًا لها ظلٌّ، ثم جُعلت أصنامًا، وعُبدت مع اللَّه تعالى[1].

---

(١) يقول الإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ في نيل الأوطار (٤/ ١٣١) مبينًا عظيم مُصاب الإسلام بتعظيم قبور الموتى والتعلق بها: «وكم قد سرى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفاسد يبكي لها الإسلام:
منها: اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفار للأصنام، وعَظُمَ ذلك فظنوا أنها قادرة على جلب النفع ودفع الضر، فجعلوها مقصدًا لطلب قضاء الحوائج وملجأً لنجاح المطالب، وسألوا منها ما يسأله العباد من ربهم، وشدوا إليه الرحال، وتمسحوا بها واستغاثوا، وبالجملة أنهم لم يدعوا شيئا مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام إلا فعلوه فإنا لله وإنا إليه راجعون، ومع هذا المنكر الشنيع والكفر الفظيع لا نجد من يغضب لله ويغار حمية للدين الحنيف لا عالمًا ولا متعلمًا ولا أميرًا ولا وزيرًا ولا ملكًا، وقد توارد إلينا من الأخبار ما لا يُشك معه أن كثيرًا من هؤلاء=

وكان أولُ هذا الداء العظيم في قوم نوح كما أخبر سبحانه عنهم في كتابه حيث يقول: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢١-٢٤].

قال ابن جرير: «وكان من خبر هؤلاء فيما بلغنا ما حدثنا به ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس: أن يغوث ويعوق ونسرا كانوا قوما صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباعٌ يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أَشْوَقَ لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسقون المطر!!، فعبدوهم!!».

= القبوريين أو أكثرهم إذا توجهت عليه يمين من جهة خصمه حلف باللَّه فاجرا! فإذا قيل له بعد ذلك احلف بشيخك ومعتقدك الولي الفلاني تلعثم وتلكأ وأبى واعترف بالحق!!

وهذا من أبْين الأدلة الدالة على أن شركَهم قد بلغ فوق شرك من قال: إنه تعالى ثاني اثنين أو ثالث ثلاثة!!

فيا علماء الدين ويا ملوك المسلمين أيُّ رُزْءٍ للإسلام أشدُّ من الكفر؟! وأيُّ بلاءٍ لهذا الدين أضرُّ عليه من عبادة غير الله؟! وأيُّ مصيبة يُصاب بها المسلمون تعدل هذه المصيبة؟! وأيُّ منكرٍ يجب إنكار إن لم يكن إنكاره هذا الشركَ البيِّن واجبًا؟!

لقد أسمعت لو ناديت حيًّا ولكن لا حياة لمن تنادي
ولو نارًا نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ في رماد.

قال سفيان عن أبيه عن عكرمة قال: «كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قُرون كلهم على الإسلام». حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا عبد الرزاق عن مَعْمَر عن قتادة في هذه الآية قال: كانت آلهةً يعبُدها قوم نوح ثم عبدتْها العرب بعد ذلك، فكان وُد لكَلْب بدَوْمَة الجَنْدَل، وكان سُواع لهُذيل، وكان يغوث لبني غَطِيف من مُراد، وكان يعوق لهمْدان، وكان نسر لذي الكِلاع من حِمْير. وقال الوالبي عن ابن عباس: هذه أصنامٌ كانت تُعبد في زمان نوح عليه السلام».

وقال البخاري: «حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام عن ابن جريج قال: قال عطاء عن ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعدُ، أما وُد فكانت لكلْب بدومة الجَنْدل، وأما سواع فكانت لهُذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجُرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمْدان، وأما نسْر فكانت لحِمْير لآل ذي الكِلاع، أسماءُ رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انْصِبُوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا، وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك ونُسيَ العلمُ عُبدت».

وقال غير واحد من السلف: «كان هؤلاء قومًا صالحين في قوم نوح عليه السلام، فلما ماتوا عَكفُوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأَمَدُ فعبدوهم».

فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل[1]، وهما

(١) يقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ عند حديثه عن شرك الصابئة قوم إبراهيم في كتابه مفتاح دار السعادة (٢/ ١٩٧): «والأصنام التي كانوا يعبدونها كانت صورًا وتماثيل للكواكب، وكانوا يتخذون لها هياكل وهي بيوت العبادات لكل كوكب منها هيكل فيه أصنامٌ تُناسبه، فكانت عبادتُهم للأصنام وتعظيمُهم لها تعظيمًا منهم للكواكب التي وضعوا الأصنام عليها وعبادةً لها، وهذا أقوى السببين في الشرك الواقع في العالم، وهو الشركُ بالنجوم وتعظيمُها واعتقادُ أنها أحياء ناطقة ولها روحانيات تتنزل على عابديها ومخاطبيها، فصوَّروا لها الصورَ الأرضية، ثم جعلوا عبادتها وتعظيمَها ذريعةً إلى عبادة تلك الكواكب واستنزال روحانياتها، وكانت الشياطين تتنزَّل عليهم وتخاطبهم وتكلمهم، وتريهم من العجائب ما يدعوهم إلى بذل نفوسهم وأولادهم وأموالهم لتلك الأصنام والتقرب إليها، وكان مبدأ هذا الشرك تعظيمَ الكواكب وظنَّ السعود والنحوس وحصول الخير والشر في العالم منها، وهذا شرك خواصِّ المشركين وأرباب النظر منهم، وهو شرك قوم إبراهيم - عليه الصلاة والسلام-.

والسبب الثاني: عبادة القبور والإشراك بالأموات وهو شرك قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو أول شرك طَرَقَ العالَم وفتنتُه أعمُّ وأهل الابتلاء به أكثر وهم جمهور أهل الإشراك، وكثيرًا ما يجتمع البيان في حق المشرك يكون مَقابريًا نُجوميًا، قال تعالى - عن قوم نوح -: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٤].

قال البخاري في صحيحه: قال ابن عباس: كان هؤلاء رجالًا صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشياطين إلى قومهم أن انصِبُوا على مجالسهم التي كانوا يجلسون عليها أنصابًا وسمُّوها بأسمائهم ففعلوا، فلم تُعبد حتى إذا هلك أولئك ونُسِخَ العلم عُبدت.

ولهذا لعن النبي ﷺ الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، ونهى عن الصلاة إلى=

الفتنتان اللتان أشار إليهما رسول اللَّه ﷺ في الحديث المتفق على صحته عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة رضي الله عنها: ذكرت لرسول اللَّه ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها مارية، فذكرت له ما رأت فيها من الصور، فقال رسول اللَّه ﷺ: **«أولئك قومٌ إذا مات فيهم العبد الصالح، أو الرجل الصالح، بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شِرارُ الخلق عند اللَّه تعالى»**. وفي لفظ آخر في الصحيحين أن أم حبيبة وأم سلمة: ذكرتا كنيسة رأينها[1].

= القبور وقال: « اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد»، وقال: «اشتد غضب اللَّه على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، وقال: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد إلا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك». وأخبر: «أن هؤلاءِ شرارُ الخلق عند اللَّه يوم القيامة» وهؤلاء هم أعداء نوح كما أن المشركين بالنُّجوم أعداء إبراهيم، فنوحٌ عَادَاه المشركون بالقبور، وإبراهيمُ عَادَاه المشركون بالنُّجوم، والطائفتان صوَّرُوا الأصنام على صُوَرِ معبوديهم ثم عبدُوها، وإنما بُعثت الرُّسُلُ بمَحْقِ الشرك من الأرض، ومحْق أهله، وقطع أسبابه، وهدم بيوته، ومحاربة أهله».

(١) يقول الحافظ ابن رجب الحنبلي -رحمه اللَّه تعالى- في شرحه لهذا الحديث من كتابه فتح الباري في شرح صحيح البخاري ٢/ ٤٠٤: (هذا الحديث يدل على تحريم بناء المساجد على قبور الصالحين، وتصوير صورهم فيها كما يفعله النصارى، ولا ريب أن كل واحد منهما محرم على انفراد ، فتصوير صور الآدميين محرم، وبناء القبور على المساجد بانفراده محرم كما دلت عليه النصوص أخر يأتي ذكر بعضها) .

فجمع في هذا الحديث بين التماثيل والقبور، وهذا كان سبب عبادة اللات، فروى ابن جرير - بإسناده - عن سفيان عن منصور عن مجاهد: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩].

قال: كان يلُتُّ لهم السَّوِيْق، فمات فعكفُوا على قبره. وكذلك قال أبو الجوزاء عن ابن عباس ﷺ: كان يَلُتُّ السويق للحاج.

[تعظيم القبور سبب عبادة غير الله تعالى]

فقد رأيتَ أن سببَ عبادةِ ود ويغوث ويعوق ونسرا واللات إنما كانت من تعظيم قبورهم، ثم اتخذوا لها التماثيل وعبدوها، كما أشار إليه النبي ﷺ.

[الشرك بقبر الرجل الذي يُعتقد صلاحهُ أقربُ إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر]

قال شيخنا: وهذه العلةُ التي لأجلها نهى الشارع عن اتخاذ المساجد على القبور هي التي أوقعت كثيرًا من الأمم إما في الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين، وتماثيلَ يزعمون أنها طلاسم للكواكب ونحو ذلك، فإن الشِّرك بقبر الرجل الذي يُعتقد صلاحُه أقربُ إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر، ولهذا تجد أقواما كثيرين يتضرعون عندها ويتخشعون ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يعبدونها في المسجد بل

ولا في السحر ومنهم من يسجد لها وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء مالا يرجونه في المساجد التي تشد إليها الرحال.

فهذه المفسدةُ التي هي مفسدةُ الشرك كبيره وصغيره هي التي حسم النبي ﷺ مادتها، حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقا، وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته كما يقصد بصلاته بركة المساجد الثلاثة ونحو ذلك، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس واستوائها وغروبها، لأنها الأوقات التي يقصد المشركون بركة الصلاة للشمس فيها، فنهى المسلم عن الصلاة حينئذ وإن لم يقصد ذلك سدًّا للذريعة.

[الصلاة عند القبور تبركًا بها عين المحادة لله ورسوله ونقل الإجماع على النهي عنها]

قال: وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور متبركًا بالصلاة في تلك البقعة، فهذا عين المحادة لله ولرسوله ﷺ، والمخالفة لدينه، وابتداع دين لم يأذن به اللَّه تعالى، فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين رسول اللَّه أن الصلاة عند القبور منهي عنها، وأنه لعن من اتخذها مساجد، فمِن أعظم المحدثات وأسباب الشرك الصلاةُ عندها، واتخاذُها مساجد، وبناءُ المساجد عليها، وقد تواترت النصوص عن النبي عليه الصلاة والسلام بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه.

فقد صرح عامةُ الطوائف بالنَّهي عن بناء المساجد عليها متابعةً

منهم للسُنَّة الصحيحة الصريحة[1]، وصرح أصحابُ أحمد وغيرُهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك، وطائفة أطلقت الكراهة، والذي ينبغي أن تُحمل على كراهة التحريم، إحسانًا للظن بالعلماء، وأن لا يُظن بهم أن يُجوِّزُوا فعلَ ما تواتر عن رسول اللَّه ﷺ لعنُ فاعله، والنهيُ عنه.

---

(١) وللإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني رحمه الله رسالةٌ مستقلة في تحريم رفع القبور وهي المسماة: (شرح الصدور بتحريم رفع القبور) نقل فيها إجماع المسلمين الصريح على تحريم رفع القبور والبناء عليها ومما جاء فيها قوله في مقدمتها: «اعلم أنه قد اتَّفق الناس سابقُهم ولاحقُهم وأولهُم وآخرُهم من لدن الصحابة رضي الله عنهم إلى هذا الوقت على أن رفعَ القُبور والبناءَ عليها بدعةٌ من البدع التي ثبت النهي عنها، واشتدَّ وَعِيد رسول اللَّه ﷺ لفاعلها... ولم يُخالف في ذلك أحدٌ من المسلمين أجمعين... (وذكر بعض أدلة النهي عن رفع القبور ومنها حديث علي رضي الله عنه) ثم قال: وفي هذا أعظم دلالة على أن تسويةَ كلِّ قبر مُشْرِفٍ بحيث يرتفع زيادةً على القبر المشروع واجبةٌ متحتمةٌ، فمِن إشْرافِ القُبُور: أن يُرفع سُمْكُها، أو يُجعل عليها القِباب، أو المساجد، فإنَّ ذلك من المنْهيِّ عنه بلا شكٍ ولا شُبْهة، ولهذا فإن النبي ﷺ بعث لهدمها أمير المؤمنين عليًّا، ثم إن أمير المؤمنين بعث لهدمها أبا الهياج الأسدي في أيام خلافته... إذا تقرَّر لك هذا علمت أن رفعَ القبور ووضْعَ القِباب والمساجد والمشاهد عليها قد لعن رسول اللَّه ﷺ فاعله تارة... وتارة قال: «اشتدَّ غضب اللَّه على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» فدعا عليهم بأن يشتد غضب اللَّه عليهم بما فعلوه من هذه المعصية وذلك ثابت في الصحيح، وتارة نهى عن ذلك، وتارة بعث من يهدمه، وتارة جعله من فعل اليهود والنصارى، وتارة قال: «لا تتخذوا قبري وثنًا» وتارة قال: «لا تتخذوا قبري عيدًا»».

[النصوص والآثار في النهي عن اتخاذ القبور مساجد]

ففي صحيح مسلم عن جندب بن عبد اللَّه البجلي قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ - قبل أن يموت بخمس - وهو يقول: «**إني أبْرأ إلى اللَّه أن يكون لي منكم خليلٌ، فإن اللَّه تعالى قد اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنت مُتَّخِذا من أمتي خليلًا لاتَّخذت أبا بكر خليلًا، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتَّخذُون قبورَ أنبيائهم مساجد، ألا فلا تَتَّخِذُوا القبور مساجد، فإني أنْهاكم عن ذلك**».

وعن عائشة وعبد اللَّه بن عباس قالا: لما نُزل برسول اللَّه ﷺ طَفِقَ يطْرح خَميصة له على وجهه، فإذا اغْتمَّ كشفها، فقال - وهو كذلك -: «**لعنةُ اللَّه على اليهود والنصارى اتَّخذُوا قبور أنبيائهم مساجد**» يحذِّر ما صنعوا. متفق عليه.

وفي الصحيحين - أيضًا - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**قاتل اللَّه اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**».

وفي رواية مسلم: «**لعن اللَّه اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**».

فقد نهى عن اتِّخاذ القبور مساجدَ في آخر حياته، ثم إنه لعن - وهو في السِّياق - من فعل ذلك من أهل الكتاب، ليحذر أمته أن يفعلوا ذلك، قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول اللَّه ﷺ - في مرضه الذي لم يَقُمْ منه -: «**لعن اللَّه اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم**

مساجد» ولولا ذلك لأُبْرِزَ قبرُه غير أنه خُشى أن يُتخذ مسجدًا . متفق عليه .

وقولها : خُشى : هو بضم الخاء، تعليلا لمنع إبراز قبره .

وروى الإمام أحمد في مسنده - بإسناد جيد - عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال : «**إن من شِرار الناس من تُدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد**»[١]، وعن زيد بن ثابت أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لعن اللَّه اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[٢].

وعن ابن عباس قال : «لعن رسول اللَّه زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج»[٣].

وفي صحيح البخاري : أن عمر بن الخطاب ﷺ رأى أنس بن مالك يصلي عند قبر، فقال : القبر القبر!!.

---

(١) وصححه شيخ الإسلام ابن تيمية في شرح العمدة (٤/ ٤٢٧) وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٧) وقال الذهبي في السير (٩/ ٤٠١) : هذا حديث حسن قوي الإسناد.

(٢) رواه الإمام أحمد، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٧) : رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون.

(٣) رواه الإمام أحمد وأهل السنن والنسائي في الكبرى (١/ ٦٥٧) والترمذي (٢/ ١٣٧) وحسنه.

[إبطال تعليل النهي عن الصلاة في المقابر بأنه لأجل النجاسة من عدة أوجه]

وهذا يدل على أنه كان من المستقر عند الصحابة ﷺ ما نهاهم عنه نبيُّهم من الصلاة عند القبور، وفِعْلُ أنس ﷺ لا يدل على اعتقاده جوازَه، فإنه لعله لم يره، أو لم يعلم أنه قبر، أو ذهِل عنه[1]، فلما نبَّههُ عمر ﷺ تنبَّه.

وقال أبو سعيد الخدري ﷺ قال رسول اللَّه ﷺ: «**الأرض كلها مسجدٌ إلا المقبرة والحمام**»[2][3].

---

(١) ويؤكد قولَ المؤلف: «فإنه لعله لم يره، أو لم يعلم أنه قبر، أو ذهِل عنه» لفظُ رواية البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٤٣٥) حيث ساق بإسناده إلى أنس قال: «قمتُ يومًا أصلِّي وبين يدي قبر لا أشعر به فناداني عمر: القبرَ القبرَ»، فقوله: (لا أشعر به) نص على الاحتمال الذي ذكره ابن القيم رحمه الله.

(٢) رواه الإمام أحمد وأهل السنن الأربعة وصححه أبو حاتم بن حبان، وقال الحافظ في الفتح (١/ ٥٢٩): رجاله ثقات لكن اختلف في وصله وإرساله وحكم مع ذلك بصحته الحاكم وبن حبان.

(٣) يقول الإمام محمد بن عبد الهادي رحمه الله في كتابه العظيم الصارم المنكي ص(٤٥٩): «فإنَّ النُّصوصَ التي صحَّت عنه ﷺ بالنهي عن تعظيمِ القبور بكل نوع يؤدي إلى الشركِ ووسائِلِه من الصلاةِ عندها وإليها واتخاذِها مساجد وإيقادِ السُّرج عليها وشدِّ الرِّحال إليها وجعلِها أعيادًا يُجتمع لها كما يُجتمع للعيد ونحو ذلك صحيحةٌ صريحةٌ محكمةٌ فيما دلت عليه وقبورُ المعظَّمين مقصودةٌ بذلك النَّص والعِلَّة، ولا ريب أن هذا من أعظم المحاذير، وهو أصل أسباب الشرك والفتنة به في العالَم». =

وأبلغ من هذا أنه نهى عن الصلاة إلى القبر، فلا يكون القبر بين المصلي وبين القبلة، فروى مسلم في صحيحه عن أبي مرثد الغنوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا تجلسوا على القبور، ولا تُصلُّوا إليها**».

وفي هذا إبطال قول من زعم أن النهي عن الصلاة فيها لأجل النَّجاسة، فهذا أبعد شيء عن مقاصد الرسول، وهو باطل من عدة أوجه:

منها: أن الأحاديث كلها ليس فيها فرق بين المقبرة الحديثة والمنبوشة كما يقوله المعلِّلُون بالنجاسة.

ومنها: أنه لعن اليهود والنصارى على اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، ومعلوم قطعًا أن هذا ليس لأجل النجاسة، فإن ذلك

= ويقول الإمام الصنعاني رَحِمَهُ اللَّهُ في سبل السلام (٢/ ١١١): «وهذه الأخبارُ المُعَبِّرُ فيها باللعن والتشبيه بقوله: «لا تجعلوا قبري وثنًا يُعْبد» أي: من دون اللَّه تفيد التَّحريمَ للعمارةِ والتَّزيين والتَّجْصِيص ووضعِ الصندوق المُزخْرف ووضْع السَّتائر على القبر وعلى سمائه والتمسح بجدار القبر، وأن ذلك قد يُفضي مع بُعد العَهْد وفُشُوِّ الجهل إلى ما كان عليه الأمم السابقة من عبادة الأوثان، فكان في المنعِ عن ذلك بالكُلِّيَّة قطعٌ لهذه الذَّريْعة المُفْضية إلى الفساد، وهو المناسب للحكمة المُعتبرةِ في شَرْعِ الأحكام من جَلْبِ المصالح ودَفْعِ المفاسد، سواء كانت بأنفسها أو باعتبار ما تُفضي إليه».

لا يختص بقبور الأنبياء، ولأن قبور الأنبياء من أطهر البقاع، وليس للنجاسة عليها طريق ألبتة، فإن اللَّه حرم على الأرض أن تأكل أجسادهم، فهم في قبورهم طريُّون.

ومنها: أنه نهى عن الصلاة إليها.

ومنها: أنه أخبر أن الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام، ولو كان ذلك لأجل النجاسة لكان ذكر الحشوش والمجازر ونحوها أولى من ذكر القبور.

ومنها: أن موضع مسجده كان مقبرة للمشركين، فَنَبَشَ قبورهم وسَوَّاها واتخذه مسجدا، ولم ينقل ذلك التراب، بل سوَّى الأرض وَمهَّدَها وصلى فيه، كما ثبت في الصحيحين عن أنس بن مالك قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة فنزل بأعلى المدينة في حي يقال لهم بنو عمرو بن عوف، فأقام النبي ﷺ فيهم أربع عشرة ليلة، ثم أرسل إلى ملأ بني النجار فجاءوا متقلدي السيوف، وكأني أنظر إلى النبي ﷺ على راحلته، وأبو بكر ردفه، وملأ بني النجار حوله، حتى ألقى بفناء أبي أيوب، وكان يحب أن يصلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مرابض الغنم، وأنه أمر ببناء المسجد، فأرسل إلى ملأ بني النجار فقال: يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا، قالوا: لا - واللَّه - ما نطلب ثمنه إلا إلى للَّه، فكان فيه ما أقول لكم قبور المشركين، وفيه

خِرَبٌ، وفيه نخلٌ، فأمر النبي ﷺ بقبور المشركين فنُبِشَتْ، ثم بالخِرب فسُوِّيت، وبالنخل فقُطع، فصفُوا النخل قبلةَ المسجد، وجعلوا عِضَادَتيْه الحجارة، وجعلوا ينقلون الصخر وهم يرتجزون. . . وذكر الحديث.

ومنها: أن فتنة الشرك بالصلاة في القبور ومشابهة عباد الأوثان أعظمُ بكثير من مفسدة الصلاة بعد العصر والفجر، فإذا نهى عن ذلك سدًّا لذريعة التشبه التي لا تكاد تخطر ببال المصلي، فكيف بهذه الذريعة القريبة التي كثيرًا ما تدعو صاحبها إلى الشرك، ودعاءِ الموتى واستغاثتهم وطلب الحوائج منهم، واعتقاد أن الصلاة عند قبورهم أفضل منها في المساجد وغير ذلك مما هو محادَّةٌ ظاهرةٌ لله ورسوله، فأين التعليل بنجاسة البقعة من هذه المفسدة؟!.

ومما يدل على أن النبي ﷺ قصد منع هذه الأمة من الفتنة بالقبور كما افتتن بها قوم نوح ومن بعدهم:

ومنها: أنه لعن المتخذين عليها المساجد، ولو كان ذلك لأجل النجاسة لأمكن أن يَتخذ عليها المسجد مع تطيينها بطين طاهر، فتزول اللعنة وهو باطل قطعًا.

ومنها: أنه قَرَنَ في اللعن بين متخذي المساجد عليها وموقدي السرج عليها، فهما في اللعنة قَرينان، وفي ارتكاب الكبيرة صِنْوان،

فإن كل ما لعن رسول اللَّه ﷺ فهو من الكبائر.

[إيقاد السرج على القبور وسيلة إلى تعظيمها]

ومعلوم أن إيقاد السرج عليها إنما لُعن فاعلُه لكونه وسيلةً إلى تعظيمها وجعلِها نُصُبًا يُوفض إليه المشركون كما هو الواقع، فهكذا اتخاذ المساجد عليها، ولهذا قَرَن بينهما، فإن اتخاذ المساجد عليها تعظيمٌ لها، وتعريضٌ للفتنة بها، ولهذا حكى اللَّه ﷻ عن المتغلِّبين على أمر أصحاب الكهف أنهم قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١][1].

---

(١) ومن العَجَبِ العُجَاب أن يظنَّ بعض من لا حَظَّ له من العلم والفهم عن اللَّه ورسوله ﷺ أن هذه الآيةَ تدلُّ على جواز البناء على القبور!! بل واتخاذ المساجد عليها!! ضاربًا بكل ما ورد عن النبي ﷺ في النهي عن ذلك والتحذير منه ولعن فاعله عُرض الحائط!!، ورحم اللَّه العلامة الآلوسي إذ يقول - رادًا على هذا الظن - في تفسيره المسمى روح المعاني (١٥/ ٢٣٧): «هذا واستُدل بالآية على جواز البناء على قبور الصلحاء!! واتخاذ مسجد عليها!! وجواز الصلاة في ذلك!!... وهو قولٌ باطلٌ عاطلٌ فاسدٌ كاسدٌ... - ثم ناقش ذلك الاستدلال وختم ذلك بقوله .: وبالجمْلةِ لا ينبغي لمن له أدنى رُشْدٍ أن يذهب إلى خلاف ما نطقت به الأخبار الصحيحة والآثار الصريحة (أي من النهي عن البناء على القبور وتشْييدِها) معولًا على الاستدلال بهذه الآية فإن ذلك في الغِوايَةِ غايةٌ وفي قِلَّةِ النُّهى نهايةٌ، وقد رأيتُ مَن يبيح ما يفعله الجهلةُ في قُبور الصالحين من إشْرافِها وبنائِها بالجص والآجر وتعليق القناديل عليها والصلاة إليها والطواف بها واستلامها والاجتماع عندها في أوقات مخصوصة إلى غير ذلك محتجًا بهذه الآية الكريمة!!، وبما جاء في بعض روايات القصة مِن جعْل المَلِك لهم في كل=

ومنها: أنه قال: «اللهم لا تجعل قبْري وثنًا يُعبد، اشتدَّ غضبُ اللَّه على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[١]، فذكْرُهُ ذلك عقيب قوله: اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، تنبيهٌ منه على سبب لحوق اللعن لهم، وهو توصلهم بذلك إلى أن تصير أوثانًا تعبد[٢].

= سَنَةٍ عيدًا!!، وجعْلِه إياهم في توابيت من ساج ومقيسًا البعض على البعض!!، وكلُّ ذلك محادَّةٌ لله تعالى ورسوله ﷺ وإبداعُ دينٍ لم يأذن به اللَّه ﷻ، ويكفيك في معرفة الحق تَتَبُّعُ ما صنع أصحابُ رسول اللَّه ﷺ في قبره - عليه الصلاة والسلام -، وهو أفضل قبر على وجه الأرض... والوقوفُ على أفعالهم في زيارتهم له والسلام عليه - عليه الصلاة والسلام - فتتبعْ ذاك وتأملْ ما هنا وما هناك، واللَّه ﷻ يتولَّى هُداك».

(١) وقال ابن عبد البر في الاستذكار (٢/ ٣٥٩): «وقد أتينا به متصلًا مسندًا في التمهيد»، وقال في شرح كتاب التوحيد (١/ ٢٩٤): «فالحديث صحيح عند من يحتج بمراسيل الثقات وعند من قال بالمسند».

(٢) يقول الإمام ابن عبد البر القرطبي رحمه الله في بيان معنى الحديث في كتابه التمهيد (٥/ ٤٥): «وكل ما يُعبد من دون اللَّه فهو وثنٌ، صنمًا كان أو غير صنم، وكانت العرب تُصلي إلى الأصنام وتعبُدها، فخشيَ رسول اللَّه ﷺ على أمته أن تصنع كما صنع بعض من مضى من الأمم، كانوا إذا مات لهم نبي عكفوا حول قبره كما يصنع بالصنم فقال ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا»: يُصلى إليه ويُسجد نحوه ويُعبد، فقد اشتد غضب اللَّه على من فعل ذلك، وكان رسول اللَّه ﷺ يحذر أصحابه وسائر أمته من سوء صنيع الأمم قبله، الذين صلوا إلى قبور أنبيائهم واتخذوها قبلة ومسجدا، كما صنعت الوثنية بالأوثان التي كانوا يسجدون إليها ويعظمونها وذلك الشرك الأكبر، فكان النبي ﷺ يخبرهم بما في ذلك من سخط=

وبالجملة فمن له معرفةٌ بالشرك وأسبابِه وذرائِعِه، وفَهِم عن الرسول ﷺ مقاصَده، جَزَمَ جزمًا لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة منه باللعن والنهي بصيغتيه: صيغة لا تفعلوا، وصيغة إني أنهاكم، ليس لأجل النجاسة، بل هو لأجل نجاسة الشرك، اللاحقة بمن عصاه، وارتكب ما عنه نهاه، واتبع هواه، ولم يخش ربه ومولاه، وقل نصيبه أو عُدِم في تحقيق شهادة أن لا إله إلا لله.

فإن هذا وأمثاله من النبي ﷺ صيانةٌ لحِمَى التوحيد أن يلحقه الشرك ويَغشاه، وتجريدٌ له، وغضبٌ لربه أن يُعدل به سواه.

[الشيطان يدخل على المعظمين للقبور من باب تعظيم الصالحين]

فأبى المشركون إلا معصيةً لأمره وارتكابًا لنهيه، وغرَّهم الشيطان، فقال: بل هذا تعظيمٌ لقبور المشايخ والصالحين!!، وكلما كنتم أشدَّ لها تعظيمًا، وأشدَّ فيهم غلوًّا، كنتم بقرْبِهم أسعد، ومن أعدائهم أبعد، ولعمر الله من هذا الباب بعينه دخل على عُبَّاد يغوث ويعوق ونسر، ومنه دخل على عُبَّاد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة[1]،

= الله وغضبه وأنه مما لا يرضاه، خشيةً عليهم امتثالَ طُرقِهم، وكان ﷺ يحب مخالفة أهل الكتاب وسائر الكفار، وكان يخاف على أمته اتِّباعهم، ألا ترى إلى قوله ﷺ على جهة التعبير والتوبيخ: «**لتتَّبِعُنَّ سَنَنَ الذين كانوا قبلكم حَذْوَ النَّعل بالنَّعل حتى إن أحدهم لو دخل جُحْرَ ضَبٍّ لدخلتموه**».

(١) وما يحدث اليوم عند قبور كثير من المعظَّمين في كثير من البلدان أشبهُ - بل والله أشد - مما كان يفعله عُبَّاد الأصنام، من الدعاء للمقبورين والتَّضَرعِ على عتباتهم=

فجمع المشركون بين الغُلوِّ فيهم، والطَّعن في طريقتهم، وهدى اللَّه أهل التوحيد لسلوك طريقتهم، وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم اللَّه إياها، من العبودية، وسلب خصائص الإلهية عنهم، وهذا غايةُ تعظيمهم

= والاستغاثة بهم وطلب تفريج الكربات وقضاء الحاجات منهم وإن شئت فَسَمِّهِ (الاعتقاد الكامل، والتعلق المطلق)، وإن كان سَرَيان ذلك قد يختلف من بلد لآخر، وقد علَّق الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في البداية والنهاية (١٠/ ٢٦٢) على قول ابن خلِّكان عن السيدة نَفِيْسَة بنت أبي محمد الحسن بن زيد بن على بن أبي طالب القرشية الهاشمية - رحمها اللَّه تعالى -: «ولأهل مصر فيها اعتقاد» بقوله: «قلت: وإلى الآن، قد بالغ العامة في اعتقادهم فيها وفي غيرها كثيرًا جدًّا، ولا سيما عوامُّ مصر، فإنهم يطلقون فيها عبارات بشيعة مجازِفة!! تؤدي إلى الكفر والشرك!! وألفاظًا كثيرةً ينبغي أن يعرفوا أنها لا تجوز... والذي ينبغي أن يُعتقد فيها ما يليق بمثلها من النساء الصالحات، وأصلُ عبادة الأصنام من المُغالاةِ في القبور وأصحابها، وقد أمر النبي ﷺ بتسوية القبور وطمسها والمغالاةُ في البشر حرامٌ».

ويقول الإمام ابنُ عبد الهادي رَحِمَهُ اللَّهُ في الصارم المنكي (ص٤١٦): «وعبادةُ الأصنام في الأمم السالفة إنما هو من الافتتانِ بالقبور وتعظِيمِها». ولما تحدث الإمام أبو شامة المقدسي الشافعي ~ في كتابه الباعث على إنكار البدع والحوادث (ص١٠٠-١٠١) عن البدع التي يظن أصحابها أنها قُرَبٌ وطاعات ذكر منها: الغلو في المشايخ ثم قال: «وبهذه الطُرُقَ وأمثالها كان مَبَادِئُ ظُهُورِ الكفر من عبادة الأصنام وغيرها».

وينقل الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ هذا المعنى عن العلماء فيقول في شرحه على صحيح مسلم (٥/ ١٣): «قال العلماء: إنما نهى النبي ﷺ عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجدًا خوفًا من المبالغة في تعظيمه والافتتان به، فربما أدَّى ذلك إلى الكفر كما جرى لكثيرٍ من الأمم الخالية».

وطاعتهم. فأما المشركون فعصوا أمرهم، وتنقَّصُوهم في صورة التَّعظيم لهم.

قال الشافعي: «أكره أن يُعظم مخلوقٌ حتى يُجعل قبرُه مسجدا، مخافةَ الفتنة عليه، وعلى مَن بعده من الناس».

وممن علل بالشرك ومشابهةِ اليهود والنصارى الأثرمُ في كتاب ناسخ الحديث ومنسوخه، فقال - بعد أن ذكر حديث أبي سعيد أن النبي ﷺ قال: «**جُعلت لي الأرضُ مسجدًا إلا المقبرةُ والحمام**»، وحديث زيد بن جبير عن داود بن الحصين عن نافع عن ابن عمر: أن النبي ﷺ نهى عن الصلاة في سبع مواطن.. وذكر منها المقبرة - قال الأثرم: إنما كُرهت الصلاة في المقبرة للتَّشبُّه بأهل الكتاب، لأنهم يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد.

* * *

[حكم اتخاذ القبور اعيادًا زمانية او مكانية]

فَصْلٌ

ومن ذلك اتخاذها عيدًا

والعيد ما يُعتاد مجيئُه وقصدُه من مكان وزمان.

فأما الزَّمان: فكقوله: «**يومُ عرفة، ويوم النحر، وأيام منى، عيدُنا أهلَ الإسلام**»، رواه أبو داود[1] وغيره.

وأما المكان: فكما روى أبو داود في سننه: أن رجلًا قال: يا رسول اللَّه إني نذرت أن أنْحر إبِلًا بِبُوانة، فقال: «**أبها وثنٌ من أوثان المشركين أو عيد من أعيادهم؟؟**»[2]، قال: لا، قال: «**فأوفِ**

---

(١) والترمذي (٣/ ١٤٣) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) يقول الإمام محمد بن عبد الهادي رَحِمَهُ اللَّهُ في الصارم المنكي (ص٤١٧) مبيِّنًا دلالة هذا الحديث: «كلُّ هذا سدٌّ للذريعة المُفْضية إلى الشرك، وحمايةٌ وصيانةٌ لجانب التوحيد، فإذا كان ﷺ قد منع الذبح عند المكان المتَّخذ عيدًا سواءٌ كان قبرًا أو غيره فَنَهْيُهُ عن اتخاذ القبر عيدًا أولى وأحرى، إذ المفسدةُ في اتِّخاذ القبر عيدًا أعظمُ بكثير من مفسدة الذبح عند المكان الذي اتخذ عيدًا، وهذه الأحاديثُ تدلُّ كلها على تحريم تخصيص القبور بما يوجب انتيابها وكثرة الاختلاف إليها من الصلاة عندها واتخاذها واتخذها عيدا وإيقاد السرج عليها والصلاة إليها والذبح عندها، ولا يخفى مقاصدُ هذه الأحاديث وما اشتركت فيه على من شمَّ رائحة التوحيد المحْض».

بنذرك»[1]، وكقوله: «لا تجعلوا قبري عيدًا».

والعيد: مأخوذ من المعاودة والاعتياد، فإذا كان اسمًا للمكان، فهو المكان الذي يُقصد الاجتماع فيه، وانْتِيابُه للعبادة أو لغيرها، كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها اللَّه تعالى عيدًا للحنفاء ومَثَابَة، كما جعل أيام التعبد فيها عيدًا.

وكان للمشركين أعيادٌ زمانيةٌ ومكانيةٌ، فلما جاء اللَّه بالإسلام أبْطلها، وعوَّض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر وأيام منى، كما عوَّضهم عن أعياد المشركين المكانية بالكعبة البيت الحرام وعرفة ومنى والمشاعر.

[النصوص في النهي عن اتخاذ القبور أعيادًا]

فاتخاذُ القبور عيدًا هو من أعياد المشركين التي كانوا عليها قبل الإسلام، وقد نهى عنه رسول اللَّه ﷺ في سيد القبور منبِّهًا به على غيره، فقال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح قال قرأت على عبد اللَّه ابن نافع أخبرني ابن أبي ذئب عن سعيد المقبرى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري**

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط (١/ ١٨٦): «أصل هذا الحديث في الصحيحين وهذا الإسناد على شرط الصحيحين وإسناده كلهم ثقات مشاهير وهو متصل بلا عنعنة». وقال الإمام محمد بن عبد الهادي في الصارم المنكي (ص٤١٧): «وهو حديث حسن صحيح».

عيدًا (١)، وصلُّوا علي، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»، وهذا إسناد حسن رواته كلهم ثقاتٌ مشاهير.

وقال أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا زيد بن الحباب حدثنا جعفر بن إبراهيم من ولد ذي الجناحين حدثنا علي بن عمر عن أبيه عن علي بن الحسين: أنه رأى رجلًا يجيءُ إلى فرجةٍ كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخلُ فيها، فيدعُو، فنَهَاه، وقال: ألا أحدِّثُكم حديثًا سمعتُه من أبي عن جدِّي عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، إن تسليمكم يبلغني أينما كنتم**»(٢)، رواه أبو عبد اللَّه محمد بن عبد الواحد المقدسي في مختاراته.

---

(١) ولم يَزَلْ علماءُ الإسلام يستنكرون الزيارات السنوية المحددة المبتدعة التي ما عرفها المسلمون في عهود الخيرية والسُّنَّة، يقول المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ عند هذا الحديث في فيض القدير (٤/ ١٩٩): «ويُؤخذُ منه أنَّ اجتماعَ العامة في بعض أضرحة الأولياء في يوم أو شهر مخصوص من السنة، ويقولون هذا يوم مولد الشيخ!! ويأكلون ويشربون وربما يرقصون فيه!! منهيٌ عنه شرعًا، وعلى وليِّ الشَّرع رَدْعُهم على ذلك وإنكارُه عليهم وإبْطالُه»، فأما مطلق الزيارة للقبور من غير تحديد وقت معين ولا إحداث بدعة ولا قصد تعظيم فسُنَّة من سنن المصطفى ﷺ التي حثَّ عليها أصحابَه، لما لها من النفع العائد على الزائر بالأجر والمثوبة والعظة والاعتبار، وعلى المزور بالانتفاع بدعاء زائريه، وسيبين المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ فرق ما بين الزيارة الشرعية والزيارة البدعية على أحسن وجه فيما سيأتي من كلامه.

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط (١/ ٣٢٢): رواه أبو عبد اللَّه=

وقال سعيد بن منصور في السنن: حدثنا حِبَّان بن علي حدثني محمد بن عجلان عن أبي سعيد مولى المهري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، وصلُّوا عليَّ حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغُني**».

وقال سعيد: حدثنا عبدالعزيز بن محمد أخبرني سهيل بن أبي سهيل قال: رآني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عند القبر، فناداني - وهو في بيت فاطمة يتعشَّى - فقال: هَلُمَّ إلى العشاء، فقلت: لا أريدُه. فقال: مالي رأيتُك عند القبر؟ فقلت: سلمت على النبي ﷺ فقال: إذا دخلت المسجد فسلِّم، ثم قال: إن رسول اللَّه قال: «**لا تتخذوا بيتي عيدًا، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر، لعن اللَّه اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم، ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء**»، فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفَين يدَّلان على ثُبوت الحديث، لا سيما وقد احتجَّ به من أرسله، وذلك يقتضي ثبوته عنده، هذا لو لم يكن رُوى من وجوهٍ مسندة غير هذين، فكيف وقد تقدم مسندًا؟.

= محمد بن عبد الواحد المقدسي الحافظ فيما اختاره من الأحاديث الجياد الزائدة على الصحيحين وشرطه فيه أحسن من شرط الحاكم في صحيحه. قلت: وهو في المختارة (٢/ ٤٩) برقم (٤٢٨).

وقال ابن عبد الهادي في الصارم المنكي (١/ ٢٦٢): «وكل جملة من هذا الحديث رويت عن النبي ﷺ بأسانيد معروفة».

قال شيخ الإسلام - قدَّس اللَّه روحه-: «ووجهُ الدلالةِ أن قبر رسول اللَّه ﷺ أفضلُ قبرٍ على وجه الأرض، وقد نهى عن اتِّخاذه عيدًا، فقبرُ غيرهِ أولى بالنهي كائنا من كان[1]، ثم إنه قَرَنَ ذلك بقوله: «ولا تتخذوا بيوتكم قبورًا» أي: لا تعطِّلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور، فأمر بتحرِّي النافلة في البيوت، ونهى عن تحرِّي العبادة عند القبور، وهذا ضدُّ ما عليه المشركون من النصارى وأشباهِهِم، ثم إنه عقَّب النَّهي عن اتخاذه عيدًا بقوله: «وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»، يشير بذلك إلى أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري وبُعدِكم، فلا حاجة بكم إلى اتخاذِهِ عيدًا.

وقد حرَّف هذه الأحاديث بعضُ من أخذ شَبَهًا من النصارى بالشِّرك، وشَبَهًا من اليهود بالتَّحريف، فقال: هذا أمر بملازمة قبره!!، والعكوف عنده!!، واعتياد قصده وانتيابه!!، ونهيٌ أن يُجعل كالعيد الذي إنما يكون في العام مرة أو مرتين!!، فكأنه قال: لا

(١) ولما ذكر ابنُ عبد الهادي رحمه الله بعض الأحاديث في النهي عن اتخاذ القبور أعيادًا قال بعدها كما في الصارم المنكي (ص٤١٦): «كلُّ هذا لئلا يحصل الافتتانُ بها... فاتِّخاذه القبرَ عيدًا هو مثلُ اتِّخاذِه مسجدًا والصلاةِ إليه، بل أبلغُ وأحقُ بالنهي، فإن اتِّخاذَه مسجدًا يصلي فيه لله - أي مع كونه منهيًّا عنه - ليس فيه من المفسدةِ ما في اتِّخاذِه عيدًا بحيث يُعتَاد انْتِيَابُه والاختلافُ إليه والازدحامُ عنده، كما يحصلُ في أمكنةِ الأعيادِ وأزمنتِها».

تجعلوه بمنزلة العيد الذي يكون من الحول إلى الحول، واقصدوه كل ساعة، وكل وقت!!

[تحريف نصوص السنة في ذلك وتفسيرها بنقيض مقصودها]

وهذا مراغمةٌ ومحادةٌ لله، ومناقضةٌ لما قصده الرسول، وقلبٌ للحقائق، ونسبةُ الرسول إلى التدليس والتلبيس بعد التَّناقض، فقاتل اللَّه أهل الباطل أنَّى يؤفكون.

ولا ريب أن من أَمَرَ الناس باعتياد أمرٍ وملازمتِه وكثرةِ انتيابه بقوله: «لا تجعلوه عيدا» فهو إلى التلبيس وضدِّ البيان أقربُ منه إلى الدِّلالة والبيان، فإن لم يكن هذا تنقيصًا فليس للتنقيص حقيقةٌ فينا، كمن يرمى أنصار الرسول وحزبه بدائِه ومصابِه ويَنْسَلُّ كأنه بريء.

ولا ريب أن ارتكابَ كلِّ كبيرةٍ بعد الشرك أسهلُ إثمًا وأخفُ عقوبةً من تعاطي مثل ذلك في دينه وسنته، وهكذا غُيِّرتْ دياناتُ الرسل، ولولا أن اللَّه أقام لدينه الأنصار والأعوان الذَّابين عنه، لجرى عليه ما جرى على الأديان قبله، ولو أراد رسول اللَّه ﷺ ما قاله هؤلاء الضُّلال لم ينْه عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، ويلعن فاعلَ ذلك، فإنه إذا لعن من اتخذها مساجد يَعبد اللَّه فيها، فكيف يأمر بملازمتها، والعُكوف عندها، وأن يُعتاد قصدُها وانتيابُها، ولا تُجعل كالعيد الذي يجيء من الحول إلى الحول؟؟ وكيف يَسأل ربهُ ألَّا يجعل قبره وثنًا يُعبد؟؟ وكيف يقول أعلم الخلق بذلك: ولولا ذلك لأُبرِزَ

قبرُهُ، ولكن خُشي أن يُتخذ مسجدًا؟؟ وكيف يقول: «**لا تجعلوا قبري عيدًا، وصلوا عليَّ حيثُما كنتم**»؟؟ وكيف لم يفهم أصحابُه وأهلُ بيته من ذلك ما فهمه هؤلاء الضُلال الذين جمعوا بين الشرك والتحريف؟؟.

وهذا أفضل التابعين من أهل بيته علي بن الحسين ﷺ: نهى ذلك الرجل أن يتحرَّى الدعاء عند قبره، واستدل بالحديث، وهو الذي رواه وسمعه من أبيه الحسين عن جدِّه علي ﷺ وهو أعلم بمعناه من هؤلاء الضُلال، وكذلك ابن عمه الحسن بن الحسن شيخ أهل بيته: كره أن يَقصد الرجلُ القبرَ إذا لم يكن يريد المسجد، ورأى أن ذلك من اتخاذه عيدًا.

قال شيخنا: فانظر هذه السُّنَّةَ كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت الذين لهم من رسول اللَّه ﷺ قربُ النسب وقرب الدار، لأنهم إلى ذلك أحوجُ من غيرهم، فكانوا له أضبط.

* * *

[مفاسد اتخاذ القبور أعيادًا]

فَصْلٌ

ثم إن في اتِّخاذ القبور أعيادًا من المفاسد العظيمة التي لا يعلمها إلا اللَّه تعالى ما يغضب لأجله كل من في قلبه وقارٌ لله تعالى، وغيرةٌ على التَّوحيد، وتهجينٌ وتقبيحٌ للشرك ولكن ما لِجرحٍ بميِّت إِيْلامُ.

فمن مفاسد اتخاذها أعيادًا: الصلاةُ إليها، والطوافُ بها، وتقبيلُها، واستلامُها، وتعْفِيرُ الخدود على ترابها، وعبادةُ أصحابها، والاستغاثةُ بهم، وسؤالُهم النصر والرزق والعافية، وقضاء الديون، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات[1]، وغير ذلك من أنواع الطلبات

---

(١) يقول الشيخ العلامة حسين بن مهدي النعمي التهامي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه العظيم معارج الألباب في مناهج الحق والصواب مشيرًا إلى ما يُرتكب عند القبور من عظائم الشرك والمحرمات معلنًا براءته رَحِمَهُ اللَّهُ من ذلك كله، ومنكرًا على من يُقرُّه، وناعيًا على المنتسبين إلى العلم سكوتهم عن إنكار ذلك (ص٥١): «وهذا كله بالنظر إلى نفس البناء على القبر لا إلى ما يترتب عليه من الوثنية والشرك، وعلى إحياء هذه المشاهد من كَلْم الإسلام وفقْء عين شريعة المختار - عليه الصلاة والسلام -، وما يقع في الزيارات من أنواع الشرك بدعاء المقبورين والطَّواف بتلك الأنصاب والعكوف عندها والنذر والتقرب لها بأنواع القربات، وما يترتب على ذلك من المفاسد والمنكرات كترك الصلاة المكتوبة، وما يقولونه من أقاويلهم المُفْتَراة المكذوبة، قد حملَّوا الولي أو حملها عنهم، واختلاط الرجال بالنساء وأرباب الملاهي واتخاذ الزينات والمجاهرات بالبدع والمعاصي والمخالفات لله التي=

التي كان عُبَّاد الأوثان يسألونها أوثانهم.

= لا طَمَعَ في حصْرِها في الرِّقاع، وكيف وقد امتدت في أقطار البسيطة على ما فيها من الاتِّساع؟! فما أكثر ما ترى هنالك من نسيان اللَّه ونبذٍ لعهوده!!، ومحادةٍ له ولكتابه وتعدٍ لحدوده!!.

ولعَمْر للَّه، من رضيَ بقاءَ هذه الرسوم شارك في هذا الخَطْب المشْؤُوم، إلا متبرئٌ لله من هذه الأحْداث، وغائرٌ لله مما حلَّ بدينه من خُطُوب هذه الأبنية، وزوَّار الأجْدَاث، الذين أعطوها حقَّ ربنا الذي هو أحق أن يُدعى ويُستغاث، وانهمكوا في صنوفٍ من أنْكرِ الأعمال، وجسائِم الأخباث.

وأنتم معشر المُفْتِين، أترضون لأنفسكم: أن تَلْقَوُا اللهَ بشيء من إشادة هذا البنيان؟ فاستعدُّوا للسؤال!! فللأعمال ديَّانٍ.

اللهم، فهذه براءةٌ إليك مما تكاد السموات يتفطَّرْن منه وتنْشقُّ الأرض وتخر الجبال هدًّا، أتَتْنَا المناهي عن رسولك في هذا الباب، كما نهى رأيَ عينٍ، في سَدْ ذرائِعه، وهدْم شرائعه، وطمْس رسُومِه وشَنَائِعِه، ثم عَمِدَ قومٌ أضاعوا عَهْدَ التَّحقيق، ولم يراعوا مشاعر تأديبك وتعليمك التي تهدِي إلى سواء الطريق، فانْتَصَبُوا لرفع رايات سوءٍ كان ينبغي أن تكون مخفُوضةً معزُولةً بحكمك الوَثيق، وإلا فكل من آمن بك وعَقَلَ عنك وتحقَّقَ بمعرفة دينك لا يجهل ما في طَيِّها من عظيم المُشَاقَّة لك ولرسولك.

اللهمَّ فمن زَعَم عليك: أنك رفعت شأن القِباب والمشاهد والزيارات المعروفة من هذه الطوائف ومواطن الأموات، وجعلتها ترياقًا لقضاء الحوائج، ومثابةً للناس، وأعيادًا لهم، وزَعَم على سلفنا الصالح من أُمَّة نبيك الأكرم: أنهم دَانُوا بذلك، أو بذرّة منه. إتباعًا لأمرك، ورضاءً بحكمك، وصار من غاية سعيه. زيادةَ ازدراء هذه المفاسد، وإيقادِ نيرانها. فاحْكُمْ بيننا وبينه بالحق، وأنت خير الحاكمين».

ثم يذكر رَحِمَهُ اللَّهُ طرفًا من حال المعظمين للقبور فيقول: «حتى أنَّا وجدنا في أفعالهم لدى هذه المشاهد ما كان صنيعَ الجاهلية عند بيوت الأوثان وزيادةَ غلوٍ على من=

[طرف من أحوال المعظمين للقبور عند زيارتهم لها]

فلو رأيتَ غلاةَ المتَّخذين لها عيدًا، وقد نزلوا عن الأكوار والدواب إذا رأوها من مكان بعيد، فوضعوا لها الجباه، وقبَّلوا الأرض، وكشفُوا الرءوس، وارتفعت أصواتهم بالضجيج، وتباكوا حتى تسمع لهم النَّشيج، ورأوا أنهم قد أرْبَوا في الرِّبح على الحجيج، فاستغاثوا بمن لا يُبدي ولا يعيد، ونادَوا ولكن من مكان بعيد، حتى إذا دَنوا منها صلَّوا عند القبر ركعتين، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر ولا أجر من صلى إلى القبلتين، فتراهم حول القبر رُكعًا سجدًا، يبتغون فضلًا من الميت ورضوانًا، وقد ملئوا أَكُفَّهم خيبةً وخُسرانًا، فلِغيرِ اللَّه بل للشيطان ما يُراق هناك من العَبَرَات، ويُرتفع من

= ضَادَّ اللَّه ورسوله باتخاذ إله ثان، فإنَّا سمعنا اللَّه يقول في كتابه - إذ سجَّل على أولئك الأقوام - ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي: هو تعالى ذو الجلال والإكرام».

وطالما شاهدنا عُبَّاد أرباب هذه القباب إذا الْتَطَمَتْ عليهم أمواجُ البحر العُبَاب، سمعت ذكْر الزَّيْلعيِّ والحَدَّاد، وكلٌ يدعو شيخَه عند ذلك الاضطراب، إذ لكلٍ طريقةٌ لا ينْتحي سواها في الهتف والانتساب، ولكلٍ من الجِيلانيِّ وابنِ علوان والعيدروس والحدَّاد وغيرهم من آلهة هذه الطوائف: طائفةٌ من العُبَّاد، ويذكرون اللَّه في جملة من ذَكَرْنَا - كما سمعنا أيضًا - كأنه واحد من تلك الأعْداد، وحَاشَا كلَّ من يؤمن باللَّه واليوم الآخر - خصوصًا صُلحاء الأمجاد - أن يرضَى شيئًا من هذا، وإلا كان شريكًا لمن حادَّ اللَّه ورسوله وضادَّ. أفلا يعْجَب أهلُ العقول والأديان من الانْسلاخ عن مشاعرِ شِرعَةِ الإسلام إلى هذه الغايات النَّوادّ؟».

الأصوات، ويُطلب من الميت من الحاجات، ويُسأل من تفريج الكُربات، وإغْناءِ ذوي الفاقات، ومعافاةِ أولى العاهات والبليَّات، ثم انْثَنَوا بعد ذلك حول القبر طائفين[1]، تشبيهًا له بالبيت الحرام الذي جعله اللَّه مباركًا وهدىً للعالمين، ثم أخذوا في التَّقبيل والاستلام، أرأيتَ الحجر الأسود وما يَفعل به وفدُ البيت الحرام، ثم عفَّرُوا لديه تلك الجِباه والخدود، التي يعلمُ اللهُ أنها لم تُعَفَّر كذلك بين يديه في السجود، ثم كمَّلوا مناسك حج القبر بالتَّقصير هناك والحِلاق، واستمتعوا بخَلاقِهم من ذلك الوثن إذ لم يكن لهم عند اللَّه من خَلاق، وقرَّبوا لذلك الوثن القرابينَ، وكانت صلاتُهم ونسكُهم وقربانُهم لغير اللَّه رب العالمين، فلو رأيتَهم يهنئُ بعضُهم بعضًا، ويقول: أجزل اللَّه لنا ولكم أجرًا وافرًا وحظًّا، فإذا رجعوا سألهم غلاةُ المتخلفين أن يبيع أحَدُهم ثوابَ حجة القبر بحج المتخلف إلى البيت الحرام، فيقول: لا

(١) ويؤكد علامة اليمن الإمام الصنعاني رَحِمَهُ اللَّهُ ما ذكره المؤلف مما آلَ إليه حال كثير من المعظَّمين للقبور من الضَّلالة فيقول: «فهؤلاءِ القُبُورِيُّونَ... سلكوا مسالكَ المُشْرِكِيْنَ حذْو القُذَّةِ بالقُذَّةِ، فاعتَقَدُوا فيهم ما لا يجوز اعتقادُه إلا في للَّه، وجعلوا لهم جزءًا من المال، وقصدُوا قبورَهم من ديارِهم للزِّيارةِ، وطافوا حولَ قُبُورِهم، وقاموا خاضِعِيْنَ عنْد قُبُورِهِم، وهَتَفُوْا بهم عند الشَّدائِد، ونَحَرُوا تقربًا إليهم، وهذه هي أنواعُ العبادةِ التي عرَّفناك... بلْ إذا حَلَفَ مَنْ عليه حقٌ باسمِ اللهِ تعالى لم يُقْبَلْ منْه، فإذا حَلَفَ باسم وَلِي من أوليائِهم قَبِلُوْه وصدَّقُوه... ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

ولو بحجِّك كل عام!!.

هذا ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم، ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم، إذ هي فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال.

وهذا كان مبدأ عبادة الأصنام في قوم نوح كما تقدم، وكل من شمَّ أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم أن من أهم الأمور سدُّ الذَّريعة إلى هذا المحذور، وأن صاحبَ الشرع أعلمُ بعاقبة ما نهى عنه لما يؤُول إليه، وأحكمُ في نهيه عنه وتوعده عليه، وأن الخيرَ والهُدى في اتِّباعه وطاعته، والشرَّ والضَّلالَ في معصيتِهِ ومخالفتِهِ.

[أبو الوفاء ابن عقيل يستنكر شرك المعظمين للقبور]

ورأيتُ لأبي الوفاء بن عَقِيل في ذلك فصلًا حسنًا فذكرتُه بلفظه، قال: لمَّا صَعُبت التكاليفُ على الجهالِ والطَّغَام عَدَلُوا عن أوضاعِ الشَّرعِ إلى تعظيم أوضاعٍ وَضعوها لأنفسهم، فسَهُلتْ عليهم، إذ لم يدخلوا بها تحت أمرِ غيرهم. قال: وهم عندي كفارٌ بهذه الأوضاع[1]، مثلُ تعظيمِ القبور، وإكرامِها بما نهى عنه الشرع، من

(١) والمتأمِّل يرى أن أكثرَ هؤلاء إنما أُتي فيما يفعله من الضَّلالة في شأن تعظيم القبور والأموات من جهلِهِ بحقيقة الإسلام والتوحيد الذي بعث اللَّه به أنبياءه ورسله -عليهم الصلاة والسلام-، ومن جهة من يحسن ظنه به من المنتسبين إلى الدين والعلم فيحصل لهم من مجموع ذلك أن يظنوا أن ما يفعلونه من أفعال الشرك إنما هو من تعظيم اللَّه ورسوله ﷺ وتوقير أولياءه، ومع أن ذلك الجهل بحقيقة دين=

إيقاد النيران، وتقبيلها، وتَخْلِيقِها، وخطاب الموتى بالحوائج، وكتب الرِّقاع فيها: يا مولاي افعلْ بي كذا وكذا، وأخذِ تُرْبَتِها تبركًا، وإفاضةِ الطِّيب على القبور، وشدِّ الرحال إليها، وإلقاءِ الخِرَق على الشجر، اقتداءً بمن عَبَد اللَّاتَ والعُزى.

والويلُ عندهم لمن لم يُقَبِّل مَشْهَدَ الكَفِّ!!، ولم يتمسح بآجرَّةِ مسجد المَلْمُوسة يوم الأربعاء!!، ولم يَقُل الحَمَّالُون على جنازتِهِ: الصديقُ أبو بكر، أو محمد وعلي!!، أو لم يعْقِدْ على قبر أبيه أَزُجًّا بالجُصِّ والآجُرِّ!!، ولم يَخْرِقْ ثيابَه إلى الذَّيل!!، ولم يُرِقْ ماءَ الورد على القبر!!. انتهى

= الأنبياء وما بعث اللَّه به الرسل من تحقيق التوحيد وإبطال الشرك لا يبرر ضلالاتهم إلا أنه يوجب العناية البالغة ببيان حقيقة التوحيد لهم قبل المبادرة إلى إطلاق الأحكام عليهم يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ كما في تلخيص كتاب الاستغاثة (٢/ ٧٣١): «فإنا بعد معرفة ما جاء به الرسول نعلم بالضَّرورةِ أنه لم يشْرع لأمته أن تدعوَ أحدًا من الأموات لا الأنبياء ولا الصالحين ولا غيرهم، لا بلفظ الاستغاثة ولا بغيرها، ولا بلفظ الاستعاذة ولا بغيرها، كما أنه لم يشْرع لأمته السجود لميت ولا لغير ميت ونحو ذلك، بل نعلم أنه نهى عن كل هذه الأمور، وأن ذلك من الشرك الذي حرَّمه اللَّه تعالى ورسوله، لكن لغَلَبَة الجهل، وقِلَّةِ العِلْمِ بآثار الرِّسالةِ في كثيرٍ من المتأخرين لم يُمْكن تكْفيرُهم بذلك حتى يتَبيَّن لهم ما جاء به الرسول ﷺ مما يخالِفُه».

[مقارنة بين هديه عليه الصلاة والسلام في شأن القبور وبين ما عليه المعظمون لها]

ومن جَمَعَ بين سُنَّةِ رسولِ اللَّه ﷺ في القبور، وما أَمَرَ به، ونَهى عنه، وما كان عليه أصحابه، وبين ما عليه أكثرُ الناس اليوم، رأى أحدَهُما مضادًّا للآخر، مناقضًا له، بحيث لا يجتمعان أبدًا: فنهى رسولُ اللَّه ﷺ عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاءِ يصلُّون عندها.

ونهى عن اتِّخاذِها مساجدَ، وهؤلاءِ يبْنُون عليها المساجد، ويسمونها مشاهد، مُضَاهَاةً لبيوتِ اللَّه تعالى.

ونهى عن إِيْقَادِ السُّرُجِ عليها، وهؤلاءِ يُوْقِفُوْنَ الوُقُوفَ على إِيْقَادِ القَنَادِيلِ عليها.

ونهى أن تُتَّخَذَ عيدًا، وهؤلاءِ يتَّخِذُونها أعيادًا ومناسكَ، ويجتمعون لها كاجتماعِهِم للعيد أو أكثر، وأمر بتسْويتِها كما روى مسلم في صحيحه عن أبي الهيَّاج الأسدي قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا أبْعثك على ما بعثني عليه رسول اللَّه ﷺ؟ ألَّا تَدَعَ تِمثالًا إلَّا طَمَسْتَهُ، ولا قبْرًا مُشْرِفًا إلَّا سوَّيتَه. وفي صحيحه - أيضًا - عن ثُمامةَ ابنِ شُفَيٍّ قال: كُنَّا مع فَضَالَةَ بن عبيد - بأرض الروم برودس - فتُوفِّي صاحبٌ لنا، فأَمَر فَضالةُ بقَبْرِهِ فسُوِّيَ، ثم قال: سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يأمرُ بتسويتها.

وهؤلاءِ يُبالغون في مخالفةِ هذين الحديثين، ويرفعُونَها عن

الأرضِ كالبيت، ويعْقِدُون عليها القبابَ.

ونهى عن تَجْصِيْصِ القبرِ والبناءِ عليه كما روى مسلم في صحيحه عن جابر قال: نهى رسول اللَّه ﷺ عن تجْصِيْصِ القبر، وأنْ يُقْعَدَ عليه، وأنْ يُبْنَى عليه بناءٌ.

ونهى عن الكتابة عليها، كما روى أبو داود الترمذى في سننهما عن جابر رضي الله عنه: أن رسول اللَّه ﷺ نهى عن تَجْصِيْصِ القُبُور، وأن يُكْتَبَ عليها. قال الترمذيُّ: حديث حسن صحيح.

وهؤلاءِ يَتَّخِذُون عليها الأَلْواحَ، ويكتبُون عليها القرآن وغيره.

ونهى أن يُزَادَ عليها غيرُ ترابِها، كما روى أبو داودَ من حديثِ جابرٍ - أيضًا - أن رسول اللَّه ﷺ: نهى أن يُجَصَّصَ القَبْرُ، أو يُكتَبَ عليه، أو يُزادَ عليه، وهؤلاءِ يَزيدُون عليه سوى الترابِ الآجُرَّ والأحْجَار والجُصَّ.

ونهى عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: أنْ يُبْنَى القبرُ بآجُرٍّ، وأوصى ألَّا يُفعلَ ذلك بقَبْرِهِ. وأوصى الأسودُ بن يزيد: ألَّا تجعلُوا على قَبْرِي آجُرًّا.

وقال إبراهيم النَّخَعِيُّ: كانوا يكرهُون الآجرَّ على قبورهم. وأوصى أبو هُريرة - حين حضرتْهُ الوفاةُ - ألَاّ تضربُوا عليَّ فُسطَاطًا[1]، وكَرِهَ الإمامُ أحمدُ أن يُضْرَبَ على القبر فُسطاطٌ.

---

(١) وهي وصية صاحب رسول اللَّه ﷺ أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أيضًا كما مصنف =

[نتيجة المقارنة]

والمقصودُ: أنَّ هؤلاءِ المعظِّمِيْن للقُبورِ، المُتَّخِذِيْنَهَا أعْيادًا، الُموقِدِيْن عليها السرج، الذين يبْنُون عليها المساجِدَ والقِبَابَ، مناقِضُون لِمَا أَمَرَ به رسولُ اللَّه ﷺ، مُحَادُّون لِمَا جاءَ به[1].

= ابن أبي شيبة (٣/ ٢٤) أن أبا سعيد قال لا تضربوا علي فسطاطًا، قال محمد بن كعب: يقول هذه الفساطيط التي على القبور محدثة.

(١) يقول العلامة حسين بن مهدي النعمي التهامي رَحِمَهُ اللَّهُ في معارج الألباب (ص٥٤) مشيرًا إلى ما وَقَعَ من المعظِّمين للقبور من المُشَاقَّةِ والمعَاندةِ والمُنَاقَضَةِ الصَّريحة لسُّنة رسول اللَّه ﷺ في شأن القبور ومخالفتها في أصل ما نهت عنه في ذلك شاكيًا إلى اللَّه تعالى ذلك:

«فإنَّ القومَ قد أبْدَلُوا - وأنتَ أعلم - رُسُومَ شَرْعِكَ بسواها!! واستولى اللَّعين على فِطَرِهم فثَنَاها عن الهُدَى ولَوَاها!! وسوَّل لهم أن يُبْدلوا الزيارة التي شرعْتَها للادِّكَار والاعتبار بضِدِّها: من التَّضَرُّع عند القبر!! والرَّقص واللَّهو!! وإبْداء الفَاقَة والافتقار وأنواع الفُجور والهَتْف والتَّمَلُّق والتَّأدب مع الرِّمم والحُكم لها بنفْع وإضْرار!!. وكيف لا؟ وقد أضَلُّوا: أنَّ لها التَّصَرُّفَ والتَّصريف في البَادِين والحُضَّار!! وصاروا يَسْتمِدُّون من نَفَحَاتهم جسائم الآمَال!! ويضربُون قِبَاب الطَّلبَات بفِنَاء أعْتَاب قِباب الأموات، يا بئس الأعمال!!.

اللهم إنَّ القوم أبْدلوا مناهي رسولك - الذي جعلت له العِصْمة من الضَّلال - عن البناء على القبور وتشريفها وتجصيصها والكتابة عليها وجعلها مساجد، وما جاء عنه من النهي عن اتخاذ قبره عيدًا بأضْدَادِها، فبنوا وشَرَّفُوا وجَصَّصُوا وكتَبُوا وجعلوها أعيادًا ومساجد، كأنه ﷺ أغْرَاهم بذلك الأمر الأسوأ، بل لو كانوا مأمورين بذلك لما حفظوه ورَعَوْه كما هم الآن، بشهادة المناهي في هذه المسألة إذ أضيعت، وشهادةِ غيرها في غير هذا الباب مما لا يحتاج إلى شرح».

وأعظمُ ذلك: اتِّخاذُها مساجد، وإيْقَادُ السُّرُجِ عليها، وهو من الكبائر، وقد صرَّحَ الفُقَهَاءُ من أصحابِ أحمدَ - وغيرهم - بتحريمه.

[قول أبي محمد المقدسي في المنع من اتخاذ السرج والمساجد على القبور]

قال أبو محمد المقدسي: ولو أُبِيْحَ اتِّخاذُ السُّرُجِ عليها لم يلْعَنِ النَّبيُّ ﷺ مَنْ فَعَلَه، ولأنَّ فيه تضييعًا للمال في غير فائدة، وإفراطًا في تعظِيْمِ القُبُورِ أَشْبَهَ تعظيمَ الأصْنَامِ، قال: ولا يجُوزُ اتِّخاذُ المساجدِ على القُبُور لهذا الخَبَرِ، ولأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «لعن اللَّه اليهود، اتخذوا قُبُورَ أنبيائِهِم مساجد»، يحذر ما صنعوا. متفق عليه.

[من آثار السلف في النهي عن إبراز القبور]

وقالت عائشة: إنما لم يُبْرَزْ قبرُ رسول اللَّه ﷺ، لئلا يُتَّخَذَ مسجدًا، لأن تخصيص القُبورِ بالصَّلاةِ عنْدها يُشْبِهُ تَعظيمَ الأصنامِ بالسُّجُودِ لها، والتقرب إليها، وقد رُوِّيْنَا أنَّ ابتداءَ عِبَادةِ الأصْنَامِ تعظيمُ الأمواتِ باتِّخاذِ صُوَرِهم، والتَّمسُحِ بها، والصلاة عندها. انتهى.

[من شدة الافتتان بالقبور أن القبوريين شرعوا لها حجًّا ووضعوا له مناسك تشبيهًا لها بالبيت الحرام]

وقد آلَ الأمر بهؤلاء الضُّلال المشركين إلى أن شَرعُوا للقبور

حجًّا ووضعوا لها مناسك حتى صنف بعض غلاتهم[1] في ذلك كتابًا

(١) هو محمد بن محمد بن النُّعمانُ المُفِيد، عالمُ الرَّافضَة أبو عبد اللَّه بن المعلِّم، رافضيٌ مُحْترقٌ، هَلَكَ سنة ثلاث عشرة وأربعمائة، قال الخطيب في تاريخ بغداد (٣/ ٢٣١): شيخُ الرَّافضة والمتعلم على مذاهبهم، صنَّف كتبًا كثيرةً في ضلالاتهم، والذَّبِّ عن اعتقاداتهم ومقالاتهم والطَّعْن على السلف الماضين من الصحابة والتابعين وعامة الفقهاء المجتهدين، وكان أحدَ أئمةِ الضَّلال، هَلَكَ به خلقٌ من الناس إلى أن أراحَ اللَّه المسلمين منه في شهر رمضان.
والشِّيْعَةُ الإماميَّةُ الإثنا عشرية الرَّافضة من أشدِّ طوائف المنتسبين إلى الإسلام إشراكًا باللَّه تعالى، وهم يقدِّسون أئمتهم الإثني عشر - الذين يزعمون لهم العصمة الكاملة - وغيرَهم تقديْسًا شِركيًا عظيمًا، ويغْلُوْن فيهم أقْبَحَ الغُلو، ويتعبَّدُون لهم دون اللَّه تعالى، ويعكُفُون على قبورهم، ويعوِّلون عليهم في قضاء الحاجات وتفريج الكربات أعظمَ من تعويلهم على اللَّه رب العالمين مالك يوم الدين، وهم - بذلك - أبعدَ ما يكونون عن إسلام الوجه والدين لله الذي هو دين جميع الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - ورحم اللَّه ابن القيم حين قال عنهم فيما سيأتي من كلامه: «ولهذا لمَّا كانت الرافضة من أبعد الناس عن العلم والدين عَمَرُوا المشاهِد وأَخْربُوا المساجد»، وهم اليوم يزحفون على العالم الإسلامي لتَصْدِير ضلالة الرَّفضِ المشؤُوْم والشِّرك المذْموم، والواجب على كل من فيه ذَرَّة من نصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامَّتِهم أن يسعى بحسب مستطاعه للتَّصَدِّي لهذا الزحف الرافضي الهدَّام، الذي يهدف إلى فتنة الأمة في الدين والدنيا بإضلالها وإفساد عقيدتها وتخريب عقولها وتمزيق جماعتها.
ولو تأمَّل الحُكَّام - الذين يتساهلون وللأسف في دخول الرفض إلى بلدانهم - في حقيقة مذهب الرافضة لعلموا أن أول ما ينتج عن تمكُّن الرَّفض في بلدانهم هو التَّأليبُ عليهم وزعزعةُ الأمن والاستقرار في ديارهم، لأن الرافضة يعتقدون أنه ليس على وجه الأرض ولايةٌ صحيحةٌ معتبرةٌ، ولا حاكمٌ شرعيٌ إلا لما يسمونه=

وسماه «مناسك حج المشاهد» مضاهاةً منه بالقبور للبيت الحرام، ولا يخفى أن هذا مفارقةٌ لِدِين الإسلام ودخولٌ في دِين عُبَّاد الأصنام.

فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول اللَّه وقصده من النَّهي عما تقدم ذكره في القبور وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه.

[مفاسد تعظيم القبور]

ولا ريب أن في ذلك من المفاسد ما يعجز العبد عن حصره:

فمنها: تعظيمها المُوقع في الافتتان بها [(١)].

= (الفَقِيْه) النَّائِب عن الإمام المعصُوم!! إمام الزمان الغائب!! الذي يتلقى الأوامر منه ويبلغها لهم، وأنه يجب على أهل الأرض جميعًا ألا يرْتَضُوا ولايةً إلا ولايةَ هذا الفقيه النائب عن الإمام الغائب!!، ويَلْزمُ مَن قَوِيَتْ شوكتُهم في بلد ما أن يسْعَوا لتغيير أوضاع الحُكم في بلدانهم لتكون تحت (ولاية الفقيه) النائب عن الإمام المعصوم.

(١) يقول الإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه أدب الطلب (١/ ٢١٤) مبينًا أثر تشييد القبور وتفخِيْمِهَا في إفْسَادِ العَقَائِد: «ومن أعظم الذَّرائِع الشَّيطانية والوسائل الطَّاغُوتِيَّة: أنهم بالغوا في التَّأنُّق في عمارة قبور من يعتقدونه من الصالحين، ونَصَبُوا عليها القِبَاب، وجعلوا على أبوابها الحُجَّاب وَوَضَعُوا عليها من السُّتُور العالية والآلات الرائعة ما يَبْهرُ النَّاظر إليه، ويُدْخل الرَّوعَةَ في قلبه، ويدعوه إلى التَّعظيم، كما جُبِلت عليه طبائِع العَوَام من دخول المَهَابَة في قلوبهم والروعة في عقولهم بما يَتَعَاطاه المُريدون لذلك... ففعلوا في الأموات من جَوَالِبِ التَّعْظِيم، وأسباب الهَيْبَة، ما يكون له من التَّأثير في قُلوب من يزورهم من العامة ما لا يُقَادر قَدْرُه، ثم يزيد ذلك قليلًا قليلًا حتى يَحْصُل لهم من الاعتقاد في أولئك الأموات ما يَقْدَح في إسلامهم ويَخْدِش في توحيدِهم!!... =

ومنها: اتخاذها عيدًا.

= ولقد تَزَلْزَل بهذا السبب أقدامُ كثيرٍ من العِبَاد عن الإسلام، وذهب بهذه الذَّريعة إيمان جماهير من الأنام، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فإنها لو كانت القبورُ على الصِّفة التي شرعها اللَّه، وعَلَّمها الأمَّةَ رسولُ اللَّه ﷺ، لم يحدثْ من هذه الاعتقادات الفاسدة شيءٌ، ولا يَشكُّ عاقلٌ أن أعظم ما أَدْخَلَ فاسدَ الاعتقاد في صُدور كثيرٍ من العِبَادِ هو هذا الأمر، مع سكوت العلماء عن البَيَان الذي أمرهم اللَّه به، ومُجَامَلَتِهِمْ للعامَّة، إما مع علمهم بما في هذا الأمر من الخَطَر أو مع غَلَبَة العادات الطارئة عليهم لما عندهم من العلم، حتى ذَهَبَ ذلك بما يعلمونه، ومَحَقَ بركَتَه وأَبْطَلَ ثمرتَه».

ويؤكِّدُ رَحِمَهُ اللَّهُ على أن تَشْيِيْدَ القُبُورِ وتَفْخِيمَهَا وتزيينَها من أعظم أسباب حمْل الجُهَّال على الإشراك بها فيقول - كما في شرح الصدور بتحريم رفع القبور.: «فلا شكَّ ولا ريْبَ أن السَّبَبَ الأعْظَمَ الذي نَشَأَ منه هذا الاعتقادُ في الأموات هو ما زيَّنَهُ الشَّيطان للناس من رفع القبور، ووضْع السُّتُور عليها، وتجصيصها وتزيينها بأبلغِ زينة، وتحسينها بأكمل تحسين، فإن الجاهل إذا وقعت عينُه على قبر من القبور وقد بُنيَت عليه قبةٌ، فدَخَلَها ونظر على القبور الستورَ الرَّائعَةَ والسُّرجَ المُتَلألئَةَ وقد سَطَعَتْ حوله مَجَامِرُ الطِّيْب فلا شَكَّ ولا رَيْبَ أنه يمتلأ قلبُه تعظِيمًا لذلك القبر، ويَضِيْقُ ذِهْنُه عن تصوُّر ما لهذا الميت من المنزلة، ويدْخُلُه من الرَّوعة والمهابة ما يزرع في قلبه من العقائد الشيطانية التي هي من أعظم مكائد الشيطان للمسلمين وأشد وسائله إلى ضلال العباد ما يزلزله عن الإسلام قليلًا قليلًا، حتى يطلبَ من صاحب ذلك القبر ما لا يقدر عليه إلا اللَّه سبحانه، فيصيرَ في عداد المشركين، وقد يحصل له هذا الشِّرك بأول رؤيةٍ لذلك القبر الذي صار على تلك الصفة وعند أول زَوْرَةٍ، إذ لا بد أن يَخْطُرَ ببالِهِ أن هذه العناية البالغة من الأحياء بمثل هذا الميت لا تكون إلا لفائدةٍ يرجُونها منه إما دنيوية أو أخروية!!».

ومنها: السفر إليها[1].

ومنها: مشابهة عبادة الأصنام بما يُفعل عندها من العُكوف عليها، والمجاورة عندها، وتعليقُ الستُور عليها، وسدانتها، وعُبَّادُها يرجِّحُون المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد الحرام، ويرون سِدانتَها أفضلَ من خدمة المساجد، والويل عندهم لقيِّمها ليلة يطفئ القنديل المعلَّق عليها.

---

(١) وقد أصبح تَتَبُّعُ ما يُسمَّى بالمزارات والعناية بها وبأوقاتها وتتبع القبور أينما كانت والسفر إليها شُغْلًا شاغلًا لكثير من الجهلة المساكين وأشباههم ممن يلبسون لباس العلم وليسوا من أهله، فما كان هذا من شأن علماء السلف وقد أشار أبو حيان الأندلسي رَحِمَهُ اللَّهُ إلى هذه الظاهرة المنكرة في تفسيره فقال (٨/ ٥٠٥): «وأما التَّبَاهي بالزِّيارة ففي هؤلاء المنتمين إلى الصُّوف - يعني الصوفية - أقوامٌ ليس لهم شُغل إلا زيارة القبور!! زرت قبر سيدي فلان بكذا!! وقبر فلان بكذا!! والشيخ فلانا بكذا!! والشيخ فلانا بكذا!!، فيذكرون أقاليمَ طافُوها على قَدَمِ التَّجريد، وقد حفظُوا حِكَايَاتٍ عن أصحاب تلك القبور وأولئك المشايخ بحيث لو كُتبت لجاءت أسفارًا، وهم مع ذلك لا يعرفون فُرُوْضَ الوُضُوءِ ولا سُنَنَه، وقد سُخِّر لهم الملوك وعوَّامُّ الناس في تحسين الظن بهم، وبذل أموالهم لهم، وأما من شَذَا منهم لأن يَتكلم للعامَّة فيأتي بعجائب يقولون: هذا فَتْحٌ!! هذا من العِلْم اللَّدُنِّي!! عِلْم الخَضِر!! حتى أن من ينتمي إلى العلم لما رأى رَوَاجَ هذه الطائفة سَلَكَ مسلَكَهم ونَقَل كثيرًا من حكاياتهم ومَزَجَ ذلك بيسير من العلم، طلبًا للمال والجَاه وتقْبِيْل اليد ونحن نسأل اللَّه ﷻ أن يوفقنا لطاعته».

ومنها : النَّذر لها ولسدنتها .

ومنها : اعتقادُ المشركين بها أنَّ بها يكشف البلاء، ويُنصر على الأعداء، ويُستنزل غيث السماء، وتُفرج الكروب، وُتقضى الحوائج، ويُنصر المظلوم، ويُجار الخائف إلى غير ذلك[1] .

---

(١) يقول الإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ مستنكرًا ضلالة الاعتقاد في الموتى، وما بَلَغَ بأهلها من تلاعب الشيطان بهم، وإضْلالِهِ إياهم في كتابه أدب الطلب (١/ ٢١٢):

«والأمر الثاني: هذه الاعتقادات التي حَدَثَتْ لهذه الأمة في صالحي الأموات حتى صار الرجل يَقْرِنُ من يعتَقِدُه من الأموات بمن يُقَلِّدُه منهم فيقول: إمامُه في المذهب فلان وشيخُه في الاعتقاد والمحبة فلان!! وهذا يقوله ظاهرًا، وهو لو كُوشِف ونَطَقَ بما في ضَمِيره لقال: وشيخه الذي يُعَوِّلُ عليه - في زعمه - عند الشدائد في قضاء حاجاته ونيل مطالبه فلانٌ. . . فعَمدُوا إلى جماعةٍ من الأموات الذين لا يستطيعون توصيةً ولا إلى أهلهم يرجعون، فقصدُوهم في المُهمَّات، وعكَفُوا على قبورهم، ونذروا لهم النذور، ونحروا لهم النَّحَايِر، وفزِعُوا إليهم عند المهمات.

فتارة يطلبون منهم من الحاجات ما لا يقدر عليه إلا اللَّه ﷻ، وخصُّوهم بالنِّداء وأفردوهم بالطلب، وتارة ينادونهم مع اللَّه - ﷻ - ويصرُخُون بأسمائهم مع اسم اللَّه سبحانه، فيأتُون بكلماتٍ تقْشَعِرُّ لها جُلُود من يعلم معنى (لا إله إلا الله) ويعرف مدلُول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وتلاعَبَ بهم الشيطان في ذلك، ونقلهم من مَرْتَبَةٍ إلى مرتبَةٍ، ومن منزلةٍ إلى منزلةٍ، حتى استعظموا من جانب هؤلاء الأموات الذين خلقهم اللَّه ورزقهم وأحياهم وأماتهم ما لا يستعظمونه من جانب بارئ البرية وخالق الخلق جلَّ اسْمُه وتعالى قدْرُه ولا إله غيرُه، وأفْضَى ذلك إلى أن أحدهم يحلفُ باللَّه تعالى فاجرًا ولا يحلف بمنْ يعتقِدُه من الأموات، ويُقْدم على المعصية في المساجد التي هي بيوت اللَّه ولا يقدم عليها عند قبر من=

ومنها: الدخول في لعنة اللَّه تعالى ورسوله باتخاذ المساجد عليها وإيقاد السرج عليها.

ومنها: الشرك الأكبر الذي يُفعل عندها.

ومنها: إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم، فإنهم يؤذيهم ما يُفعل عند قبورهم، ويكرهونه غاية الكراهة، كما أن المسيح يكره ما يفعله النصارى عند قبره، وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء والمشايخ يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم، ويوم القيامة يتبرءون منهم كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٧-١٨]، قال اللَّه للمشركين: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٩].

= يعتقِدُه، وتَزَايَدَ الشَّرُّ، وعَظُمَتْ المِحْنَةُ، وتَفَاقَمَت المصيبة، حتى صار كثيرٌ منهم يَنْسِبُون ما أصابهم من الخير في الأنفس والأموال والأهل إلى ذلك الميت، وما أصابهم من الشر في ذلك إليه وقد صار تحت أطْبَاقِ الثَّرَى، وغُيِّبَ عن أعْيُنِ البشر، وصار مشغولًا عاجزًا عن جَرِّ نفعٍ إليه أو دفع ضَرٍّ عنه، منتظرًا لما يَنتظر له مثلُه من الأموات، لا يدري ما نزل به من هؤلاء النَّوكَاء، ولا يشْعُرُ بما ألْصَقُوه به، ولو عَلِمَ بذلك لجَالَدَهُمْ بالسيف ودَفَعَهُم بما يقدر عليه».

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ ٤١-٤٠].

ومنها: مشابهة اليهود والنصارى في اتخاذ المساجد والسُّرج عليها.

ومنها: محادة اللَّه ورسوله ومناقضة ما شرعه فيها.

ومنها: التعب العظيم مع الوِزْرِ الكثير والإثم العظيم.

ومنها: إماتةُ السنن وإحياءُ البدع.

ومنها: تفضيلها على خير البِقاع وأحبِها إلى اللَّه، فإن عُبَّاد القبور يُعطونها من التعظيم والاحترام والخشوع ورقة القلب والعكوف بالهمة على الموتى مالا يفعلونه في المساجد، ولا يحصل لهم فيها نظيره ولا قريب منه.

ومنها: أن ذلك يتضمن عمارة المشاهد وخراب المساجد، ودين اللَّه الذي بعث به رسوله ﷺ بضد ذلك، ولهذا لما كانت الرَّافضةُ من

أبعد الناس عن العلم والدين عمروا المشاهد وأخربوا المساجد.

[المعظمون للقبور ابطلوا المقصود من زيارة القبور وارتكبوا نقيضه]

ومنها: أن الذي شرعه الرسول عند زيارة القبور إنما هو تذكُّر الآخرة، والإحسانُ إلى المزور بالدعاء له، والتَّرحم عليه، والاستغفار له، وسؤال العافية له، فيكون الزائر محسنًا إلى نفسه وإلى الميت، فقَلَبَ هؤلاء المشركون الأمر، وعكسوا الدِّين، وجعلوا المقصودَ بالزيارة الشركَ بالميت، ودعاءَه، والدعاءَ به، وسؤالَه حوائجهم، واستنزالَ البركات منه، ونصرَه لهم على الأعداء، ونحو ذلك فصاروا مسيئين إلى نفوسهم وإلى الميت، ولو لم يكن إلا بحرمانه بركة ما شرعه اللَّه تعالى من الدعاء له والترحم عليه والاستغفار له.

[زيارة القبور التي شرعها اللَّه وشرعها رسوله]

فاسمع الآن زيارة أهل الإيمان التي شرعها اللَّه تعالى على لسان رسوله، ثم وَازن بينها وبين زيارة أهل الإشراك التي شرعها لهم الشيطان واختر لنفسك[1]:

---

(١) ويُلخِّصُ شيخ الإسلام ابنُ تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ القولَ في نوعي الزيارة فيقول - كما في منهاج السنة النبوية (٢/ ٤٣٨)-:

«وزيارةُ القبور على وجهين: زيارةُ أهل التَّوحيد المتَّبِعين للرسل، وزيارةُ أهل البِدَعِ والشِّرك: =

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول اللَّه ﷺ كلما كان ليلتها منه يخرج من آخر الليل إلى البَقِيع فيقول: «**السلام عليكم دارَ قوم مؤمنين، وأتاكم ما توعدون، غدًا مُؤجَّلُون وإنا إن شاء اللَّه بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغَرْقَد**» رواه مسلم.

وفي صحيحه عنها - أيضًا - أن جبريل أتاه فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفرَ لهم، قالت: قلت: كيف أقولُ لهم يا رسول الله؟ قال: «**قولي: السلامُ على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم اللَّه المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء اللَّه بكم للاحقون**».

وفي صحيحه - أيضًا - عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال كان

= فالأولى: مقصودُها أن يُسلَّم على الميت ويُدعى له، وزيارةُ قبره بمنزلةِ الصلاةِ عليه إذا مات، يُقصَدُ بها الدعاءُ له، واللَّه سبحانه يُثيب هذا الداعي له عند قبره كما يثيب الداعي إذا صلى عليه وهو على سريره.

والثانية: مقصودُها أن يَطلب منه الحوائج، أو يُقْسِمَ على اللَّه، أو يَظُنَّ أن دعاءَ اللَّه عند قبره أقربُ إلى الإجابة، فهذا كُلُّه من البدع المُنْكَرَةِ باتِّفاق أئمة المسلمين، ولم يكن شيءٌ من هذا على عهد الرسول ﷺ وأصحابه والتابعين لهم بإحسان، بل كان المسلمون لما فتحوا أرض الشام والعراق وغيرهما إذا وَجَدُوا قبرًا يُقْصَدُ الدعاء عنده غَيَّبُوه كما وجدوا بتُسْتَر قبر دانْيَال فحَفَروا له بالنَّهار ثلاثة عشر قبرًا ودفَنَوه بالليل في واحدٍ منها، وكان مكشوفًا، وكان الكفار يسْتَسْقُون به، فغَيَّبَهُ المسلمون لأن هذا من الشِّرك».

رسول اللَّه ﷺ يُعلِّمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: «السلام على أهل الدِّيار»، وفي لفظ: «السلام عليكم أهلَ الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء اللَّه بكم لاحقون، نسأل اللَّه لنا ولكم العافية».

وعن بريدة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فمن أراد أن يزور فليَزُر، ولا تقولوا هُجْرًا» رواه أحمد والنسائي.

[سبب نهيه ﷺ للرجال عن زيارة القبور في بادئ الأمر]

وكان رسول اللَّه ﷺ قد نهى الرجال عن زيارة القبور سدًّا للذَّريعة[1]، فلما تمكَّن التوحيد في قلوبهم أذن لهم في زيارتها على الوجه الذي شرعه، ونهاهم أن يقولوا هُجْرًا، فمن زارها على غير

---

(١) يقول البَدْر العَيْني الحنفي رَحِمَهُ اللَّهُ في عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٨/ ٧٠) مبينًا سَبَبَ النَّهي عن زيارة القبور في أول الإسلام: «النَّهيُ عن زيارة القبور إنما كان في أول الإسلام عند قُرْبِهِم بعبادة الأوثان واتخاذ القبور مساجد، فلما اسْتَحْكَم الإسلام وقَوِيَ في قُلوب الناس وأُمِنَتْ عبادةُ القبور والصلاة إليها نُسِخَ النَّهي عن زيارتها، لأنها تذكر الآخرة وتزهد في الدنيا».

ويؤكد هذا المعنى العلامة السويدي رَحِمَهُ اللَّهُ كما في العقد الثمين (١٧٥-١٧٦) بعد أن ذكر مَبْدَأَ الشرك في قوم نوح ﷺ وأنه من تعظيمهم لقبور صالحيهم فيقول: «فلما كان منْشَأُ عبادة الأصنام من جهةِ القبور نهى النبي ﷺ أصحابه في أول الإسلام عن زيارة القبور سدًا لذَرِيْعَة الشِّرك».

الوجه المشروع الذي يحبه اللَّه ورسوله فإن زيارته غير مأذون فيها، ومن أعظم الهُجْر الشركُ عندها قولًا وفعلًا.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**زوروا القبور، فإنها تذكر الموت**».

وعن علي بن أبي طالب ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إني كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها فإنها تذكركم الآخرة**»[(١)].

وعن ابن عباس ﷺ قال: مرَّ رسول اللَّه ﷺ بقبور المدينة، فأقبل عليهم بوجهه، فقال: «**السلام عليكم يا أهل القبور، يغفر اللَّه لنا ولكم، ونحن بالأثَر**» رواه أحمد والترمذي وحسنه[(٢)].

وعن ابن مسعود ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروا القبور، فإنها تزهِّد في الدنيا، وتذكِّر الآخرة**»[(٣)].

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

---

(١) رواه الإمام أحمد وقال ابن الملقن كما في البدر المنير (٥/ ٣٤٠) عن أصل الحديث: هذا الحديث صحيح وله طرق كثيرة وذكر منها حديث علي.

(٢) وصحح إسناده علي حسن عبد الحميد في تحقيقه للروضة الندية (ص٤٧٤).

(٣) رواه ابن ماجه وصحح إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٨٩)، والمناوي في التيسير بشرح الجامع الصغير (٢/ ٢٢٤)، والزرقاني في الشرح على الموطأ (٣/ ١٠١).

«كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، فإن فيها عِبْرة»[١].

فهذه الزيارة التي شَرَعَها رسول اللَّه لأُمَّتِه وعلَّمهم إياها، هل تَجدُ فيها شيئا ممَّا يعتمده أهل الشرك والبدع؟! أم تجدها مضادةً لما هم عليه من كل وجه؟؟، وما أحسن ما قال مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ: لن يُصلح آخرَ هذه الأمة إلا ما أَصلحَ أولَها.

ولكن كلما ضعُف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم ونقص إيمانهم عُوِّضُوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك.

[تجريد السلف للتوحيد وامثلة ذلك]

ولقد جرد السلف الصالح التوحيد وحَمَوا جانبه، حتى كان أحدُهم إذا سلم على النبي ﷺ ثم أراد الدعاء استقبل القبلة، وجعل ظهَره إلى جدار القبر، ثم دعا.

فقال سلمة بن وردان: رأيت أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُسلِّم على النبي ﷺ ثم يُسند ظهره إلى جدار القبر ثم يدعو.

[تنصيص الأئمة الأربعة على أن الداعي عند القبر يستقبل للقبلة والحكمة في ذلك]

ونصَّ على ذلك الأئمةُ الأربعة أنه يستقبل القبلة وقت الدعاء،

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٥٨): «ورجاله رجال الصحيح»، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٨٩): «رواه أحمد ورواته محتج بهم في الصحيح».

حتى لا يدعو عند القبر، فإن الدعاء عبادة، وفي الترمذي وغيره مرفوعًا: «**الدعاء هو العبادة**»[1].

فجرَّد السلفُ العبادة لله ولم يفعلوا عند القبور منها إلا ما أَذِن فيه رسول اللَّه ﷺ من السلام على أصحابها، والاستغفار لهم، والترحم عليهم.

[الميت قد انقطع عمله وهو بحاجة إلى دعاء الأحياء]

وبالجملة فالميت قد انقطع عمله، فهو محتاج إلى من يدعو له ويشفع له، ولهذا شُرع في الصلاة عليه من الدعاء له وجوبًا واستحبابًا ما لم يُشرع مثله في الدعاء للحي، قال عوف بن مالك: صلى رسول اللَّه ﷺ على جنازة، فحفظت من دعائه وهو يقول: «**اللهم اغفر له، وارحمه، وعافِه، واعْفُ عنه، وأكْرم نُزُله، ووسِّع مُدخَله، واغسله بالماء والثلج والبَرَد، ونقِّه من الخطايا كما نَقَّيْت الثوب الأبيض من الدَّنس، وأبدله دارًا خيرًا من داره، وأهلًا خيرًا من أهله، وزوجًا خيرًا من زوجه، وأدخله الجنة، وأَعِذْهُ من عذاب القبر، أو من**

---

(١) رواه أحمد في المسند (٤/ ٢٦٧) والترمذي وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٥٠)، وابن ماجه (٢/ ٢٥٨). قال الحافظ في الفتح (١١/ ٩٤): «أخرجه أصحاب السنن بسند جيد». وصحح إسناده الحاكم في المستدرك (١/ ٦٦٧)، والمناوي في التيسير بشرح الجامع الصغير (٢/ ١١)، وقال ابن منده في الفوائد (١/ ٥٧): «صحيح».

عذاب النار» حتى تمنيت أن أكون أنا الميت لدعاء رسول اللَّه ﷺ على ذلك الميت. رواه مسلم.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول - في صلاته على الجنازة -: **«اللهم أنت ربُّها، وأنت خلقتها، وأنت هديتها للإسلام، وأنت قبضت روحها، وأنت أعلم بسرها وعلانيتها، جئنا شفعاء فاغفر له»**[1].

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«إذا صليتم على الميت فأخلصُوا له الدعاء»**[2].

وقالت عائشة وأنس عن النبي ﷺ: **«ما من ميت يصلي عليه أمة من المسلمين - يبلغون مائة - كلهم يشفعون له إلا شُفِّعُوا فيه»**. رواه مسلم.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: **«ما من رجل مسلم يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلًا - لا يُشركون باللَّه شيئًا - إلا شفَّعهم اللَّه فيه»**. رواه مسلم.

فهذا مقصود الصلاة على الميت: وهو الدعاء له، والاستغفار، والشفاعة فيه.

---

(١) رواه الإمام أحمد والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٦٦).

(٢) صححه ابن حبان كما ذكر ابن الملقن في البدر المنير (٥/ ٢٦٩)، وحسنه الألباني في أحكام الجنائز (ص١٢٣).

ومعلوم أنه في قبره أشد حاجةً منه على نعشه، فإنه حينئذ معرَّضٌ للسؤال وغيره، وقد كان النبي ﷺ يقف على القبر بعد الدفن فيقول: «سَلُوا له التَّثبيت فإنه الآن يُسأل»[1].

فعُلم أنه أحوجُ إلى الدعاء له بعد الدفن، فإذا كنا على جنازته ندعو له لا ندعو به، ونشفع له لا نشفع به، فبعد الدفن أولى وأحرى.

[تبديل أهل البدع للمشروع في زيارة القبور وإحداثهم نقيضه]

فبدَّل أهل البدع والشرك قولًا غير الذي قيل لهم، بدلوا الدعاء له بدعائه نفسه، والشفاعة له بالاستشفاع به، وقصدوا بالزيارة التي شرعها رسول اللَّه ﷺ إحسانًا إلى الميت وإحسانًا إلى الزائر وتذكيرًا بالآخرة سؤالَ الميت، والإقسامَ به على اللَّه، وتخصيصَ تلك البقعة بالدعاء الذي هو مخ العبادة، وحضورَ القلب عندها، وخشوعَه أعظمَ منه في المساجد، وأوقات الأسحار.

---

(١) رواه الضياء في المختارة ١/ ٥٢٢ وحسنه محققها عبد الملك بن عبد اللَّه بن دهيش، وحسنه الإمام النووي في الأذكار ص ٥٢٢، كما حسن إسناده يحيى بن مري الحزامي، الحوراني في خلاصة الأحكام ٢/ ١٠٢٨، والمناوي في التيسير بشرح الجامع الصغير ٢/ ٢٥٤، والشوكاني في تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين ص ٣٤٤، وجود إسناده زكريا الأنصاري في أسنى المطالب في شرح روض الطالب ١/ ٣٢٩، وقال ابن القيم في الروح ص ١٣: إسناده لا بأس به وتبعه الشنقيطي في الأضواء ٦/ ١٣٧ وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود حديث رقم (٢٧٥٨).

ومن المحال أن يكون دعاءُ الموتى، أو الدعاء بهم، أو الدعاء عندهم، مشروعًا وعملًا صالحًا ويُصرف عنه القرون الثلاثة المفضَّلة بنص رسول اللَّه ﷺ، ثم يُرزقُه الخُلُوف الذين يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون.

[لا يوجد حرف واحد من السنة ولا من فعل الخلفاء ولا غيرهم من الصحابة يؤيد بدع المعظمين للقبور]

فهذه سُنَّةُ رسول اللَّه ﷺ في أهل القبور بضعا وعشرين سَنَةً، حتى توفاه اللَّه تعالى، وهذه سنةُ خلفائه الراشدين، وهذه طريقة جميع الصحابة والتابعين لهم بإحسان، هل يمكن بشرٌ على وجه الأرض أن يأتى عن أحد منهم بنقْل صحيح أو حسن أو ضعيف أو منقطع: أنهم كانوا إذا كان لهم حاجة قصدوا القبور فدعوا عندها؟ وتمسحوا بها؟ فضلًا أن يصلُّوا عندها؟ أو يسألوا اللَّه بأصحابها؟ أو يسألوهم حوائجهم؟ فليُوقِفُونا على أَثَرٍ واحد، أو حرْفٍ واحد في ذلك[1]،

---

(١) يقول الشيخ العلامة حافظ بن أحمد الحكمي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه معارج القبول (٢/ ٥١٨) مبيِّنًا هدْيَ الصحابة والتابعين في زيارتهم لقبره ﷺ وغيره من القبور، وأنهم في ذلك عامِلُون بما عَلَّمهم إياه نبيُّهم ﷺ لم يزيدوا على ذلك ولم يبدلوا تبديلًا: «وكان الصحابةُ إذا أتوا قبرَه ﷺ صلَّوا وسَلَّمُوا عليه فحسب. كما كان ابن عمر رضي الله عنه يقول: السلامُ عليك يا رسولَ للَّه، السلام عليك يا أبا بكر، السلامُ عليك يا أبتاه. وكذا التَّابعُون ومن بعدهم من أَعْلامِ الهُدَى ومَصَابِيْحِ الدُّجَى لم يُذكر=

بلى : يُمكنهم أن يأتوا عن الخُلوف التي خلفت بعدهم بكثير من ذلك، وكلما تأخَّرَ الزمان وطال العَهد كان ذلك أكثر، حتى لقد وُجد في ذلك عدة مصنفات ليس فيها عن رسول اللَّه ﷺ، ولا عن خلفائه الراشدين، ولا عن أصحابه حرفٌ واحد من ذلك، بلى فيها من خلاف ذلك كثير كما قدمناه من الأحاديث المرفوعة.

[من آثار السلف في نهيهم عن الاحتفاء بالقبور وتعظيمها]

وأما آثار الصحابة فأكثر من أن يُحاط بها، وقد ذكرنا إنكارَ عمر رضي الله عنه على أنس رضي الله عنه صلاتَه عند القبر، وقوله له: القبر القبر!!.

وقد ذكر محمد بن إسحاق - في مغازِيْه - من زيادات يونس بن بكير عن أبي خلدة خالد بن دينار قال: حدثنا أبو العالية، قال: لما فتحنا تُسْتَر، وجدنا في بيت مال الهُرمزان سريرًا، عليه رجل ميت، عند رأسه مصحف له، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فدعا له كعبًا، فنسخه بالعربية، فأنا أول رجل من

= عنهم في زيارة القُبُور غيرُ العملِ بهذه الأحاديث النبوية وأفعالِ الصَّحابَة، لم يعْدِلُوا عنها، ولم يسْتَبْدِلُوا بها غيرها، بل وَقَفُوا عندها، فهذه الزِّيارةُ الشرعيةُ المستفادةُ من الأحاديث النبوية، وعليها دَرَجَ الصَّحابةُ والتَّابعون وتابعُوهم بإحسان، إنما فيها التَّذكُّرُ بالقبور والاعتبار بأهلها، والدعاءُ لهم والتَّرحمُ عليهم وسؤالُ اللَّه العفْوَ عنهم، فمنْ ادّعى فيها غير هذا طُوْلِبَ بالبُرهان، وأنى له ذلك!! ومن أين يطلبه؟؟ بل كَذَبَ وافترى، وقفا ما ليس له به علم، بلى إن العُلومَ الشَّرعية دالةٌ على ضلاله وجهْلِهِ».

العرب قرأه، قرأتُه مثل ما أقرأ القرآن، فقلت لأبي العالية: ما كان فيه؟؟ قال: سيرتُكم، وأمورُكم، ولُحُون كلامكم، وما هو كائنٌ بعدُ، قلت: فما صنعتم بالرجل؟؟ قال: حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبرا متفرقة، فلما كان الليل دفناه، وسوينا القبور كلها لنعمِّيَه[1] على الناس

(١) وهذا ما دَرَجَ عليه أصحابُ رسول اللَّه ﷺ الذين هم أعلمُ الخلق بدينه وسنَّتِه فلم يكونوا يحْتَفُون بالقبور، ولم يكونوا يطلُبُونها لتعظيمِهَا، بل على الضِّد من ذلك كانوا يَعْمِدُون إلى تعْمِيَتِهَا وإخفائِها خشيةَ أن يقع في الأمة ما وقع في الأمم السابقة من تعظيمها والافتِتَان بها يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ كما في كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه (٢٧/ ٢٧١):

«ولم تَدَع الصحابةُ في الإسلام قبرًا ظاهرًا من قبور الأنبياء يَفْتَتِنُ به الناسُ، ولا يسافرون إليه ولا يدْعونه ولا يتَّخذونه مسجدًا، بل قبرُ نبيِّنا حَجَبُوه في الحُجْرة، ومنَعُوا الناسَ منه بحسب الإمكان، وغيره من القبور عفَّوْه بحسب الإمكان إن كان الناس يفتتنون به، وإن كان لا يفتتنون به فلا يضرُّ معرفة قبره، وهكذا كانوا يفعلون بقبور الأنبياء والصالحين، فقبر دانيال - كما قيل - كانوا يجدون منه رائحة المسك فعفَّوْه لئلا يَفتتن به الناس، . . . فكان السفر إلى زيارة قبور الأنبياء والصالحين ممتنعًا على عهد الصحابة والتابعين، وإنما حَدَثَ بعدَهم، فالأنبياءُ كثيرون جدًا وما يُضاف إليهم من القبور قليلٌ جدًا، وليس منها شيءٌ ثابتٌ عرفًا. . . فإن هذا من كرامةِ محمد وأمته، فإن اللَّه صَانَ قبور الأنبياء عن أن تكون مساجد صيانةً لم يحصل مثلُها في الأمم المتقدمة، لأن محمدًا وأمتَه أظهروا التوحيد إظهارًا لم يظهرْه غيرُهم، فقهروا عُبَّادَ الأوثان وعُبَّادَ الصُلبان وعُبَّاد النيران، وكما أخفى اللَّه بهم الشِّركَ فاظهر اللَّه بمحمد وأمتِه من الإيمان بالأنبياء وتعظيمِهم وتعظيم ما جاؤوا به وإعلان ذكرهم بأحسنِ الوجوه ما لم يظهر مثلُه في أُمَّةٍ من الأُممِ».

لا ينبشونه. فقلت: وما يرجون منه؟؟!! قال: كانت السماء إذا حُبِسَتْ عنهم، أبرزوا السرير، فيُمطرون!!، فقلت: من كنتم تظنون الرجل؟؟ قال: رجلٌ يقال له: دانيال، فقلت: مذ كم وجدتموه مات؟؟ قال: مذ ثلاثمائة سنة. قلت: ما كان تغيَّر منه شيء؟؟ قال: لا! إلا شُعَيْرات من قَفاه، إن لحوم الأنبياء لا تُبليها الأرض، ولا تأكلها السِّباع.

[لو ظفر المعظمون للقبور بقبر دانيال لفعلوا به نقيض ما فعله الصحابة]

ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار من تَعْمِيَة قبره، لئلا يفتتن به الناس، ولم يبرزوه للدعاء عنده، والتبرك به، ولو ظَفِر به المستأخرون لجالدوا عليه بالسيوف، ولعبدوه من دون للَّه، فهم قد اتخذوا من القبور أوثانًا من لا يداني هذا ولا يقاربه!! وأقاموا لها سدنة!! وجعلوها معابد أعظم من المساجد، فلو كان الدعاء عند القبور، والصلاة عندها، والتبرك بها فضيلةً أو سُنةً أو مباحًا لنَصب المهاجرون والأنصار هذا القبر عَلَمًا لذلك، ودعَوا عنده، وسَنُّوا ذلك لمن بعدهم، ولكن كانوا أعلم باللَّه ورسوله ودينه من الخلوف التي خَلَفت بعدهم، وكذلك التَّابعون لهم بإحسان راحوا على هذا السبيل، وقد كان عندهم من قبور أصحاب رسول اللَّه ﷺ بالأمصار عددٌ كثيرٌ، وهم مُتوافِرون، فما منهم من استغاث عند قبر صاحب، ولا دعاه، ولا دعا به، ولا دعا عنده، ولا استشفى به، ولا استسقى

به، ولا استنصر به.

ومن المعلوم أن مثل هذا مما تَتَوفَّر الهمم والدَّواعي على نقله، بل على نقل ما هو دونه، وحينئذ فلا يخلو:

- إما أن يكون الدعاء عندها، والدعاء بأربابها، أفضل منه في غير تلك البقعة، أولا يكون، فإن كان أفضل، فكيف خَفي علمًا وعملًا على الصحابة والتابعين وتابعيهم؟؟ فتكون القرون الثلاثة الفاضلة جاهلةً بهذا الفضل العظيم!! وتظفر به الخلوف علمًا وعملًا!! ولا يجوز أن يعلموه، ويزهدوا فيه، مع حرصهم على كل خير، لا سيما الدعاء، فإن المضطر يتشبَّث بكل سبب، وإن كان فيه كراهةً ما، فكيف يكونون مضطرين في كثير من الدعاء، وهم يعلمون فضل الدعاء عند القبور، ثم لا يقصدونه؟! هذا محالٌ طبعًا وشرعًا.

- فتعيَّن القسم الآخر وهو: أنه لا فضلَ للدعاء عندها، ولا هو مشروعٌ، ولا مأذونٌ فيه بقصد الخصوص، بل تخصيصها بالدعاء عندها ذريعةٌ إلى ما تقدم من المفاسد، ومثل هذا مما لا يشرعه اللَّه ورسوله ألبتة. بل استحباب الدعاء عندها شرعُ عبادةٍ لم يشرعها اللَّه، ولم ينزل بها سلطانًا.

[إنكار الصحابة لأمور هي دون ما يفعله المعظمون للقبور بكثير]

وقد أنكر الصحابة ما هو دون هذا بكثير، فروى غير واحد عن المعْرُور بن سويد قال: صليت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه - في طريق

مكة - صلاة الصبح، فقرأ فيها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١]، ثم رأى الناس يذهبون مذاهب، فقال: أين يذهب هؤلاء؟! فقيل: يا أمير المؤمنين مسجدٌ صلَّى فيه النبي ﷺ فهم يصلون فيه، فقال: إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا، كانوا يتَّبعون آثار أنبيائهم، ويتخذونها كنائس وبيعا، فمن أدركته الصلاة منكم في هذه المساجد فليصل، ومن لا فليمض، ولا يتعمدها.

وكذلك أرسل عمر رضي الله عنه - أيضًا - فقطع الشجرة التي بايع تحتها أصحابُ رسول اللَّه ﷺ[1].

بل قد أنكر رسول اللَّه ﷺ على الصحابة لما سألوه أن يجعل لهم شجرة يعلِّقُون عليها أسلحتهم ومتاعهم بخصوصها، فروى البخاري في صحيحه[2] عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول اللَّه قِبَل حنين - ونحن حديثو عهد بكفر - وللمشركين سدرةٌ يعكفون حولها، ويَنُوطُون بها أسلحتهم، يقال لها: ذاتُ أَنْواط، فمررنا بسِدْرَة، فقلنا: يا رسول اللَّه اجعل لنا ذاتَ أنواط، كما لهم ذاتُ أنواط، فقال

---

(١) وهذان الأثران عن الفاروق رضي الله عنه صححهما المحدث الألباني رحمه الله في تخريجه لأحاديث فضائل الشام ودمشق ص ١٨ وكذلك قصة قبر دانيال السابقة قريبًا.

(٢) الحديث في سنن الترمذي ٤/ ٤٧٥ وليس في صحيح البخاري كما أشار إليه المصنف.

النبي ﷺ: «اللَّه أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨]. لتَرْكَبُن سَنَنَ من كان قبلكم».

فإذا كان اتخاذ هذه الشجرة لتعليق الأسلحة والعكوف حولها اتَّخاذُ إلهٍ مع اللَّه تعالى، مع أنهم لا يعبدونها، ولا يسألونها، فما الظَّنُّ بالعكوف حول القبر؟!، والدعاء به؟!، ودعائه؟!، والدعاء عنده؟!، فأي نسبة للفتنة بشجرة إلى الفتنة بالقبر لو كان أهل الشرك والبدعة يعلمون؟!!.

قال بعض أهل العلم من أصحاب مالك: فانظروا -رحمكم اللَّه- أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظِّمونها، ويرجون البرء والشفاء من قبلها، ويضربون بها المسامير والخِرق، فهي ذات أنواط فاقطعوها.

[اختلاف أحوال الناس اليوم عما كان عليه السلف الصالحون]

ومن له خبرةٌ بما بعث اللَّه تعالى به رسوله، وبما عليه أهل الشرك والبدع اليوم في هذا الباب وغيره، عَلِمَ أن بين السلف وبين هؤلاء الخلوف من البُعد أبعدَ مما بين المشرق والمغرب، وأنهم على شيء والسلف على شيء[1] كما قيل:

---

(١) وهذا من غُربة الإسلام في أهله وبين ذَوْيْهِ والمنتسبين إليه والتي أخبر ﷺ أن=

سارت مشرقة وسرت مغربًا شتَّان بين مشرق ومغرب

والأمر واللَّه أعظم مما ذكرنا.

وقد ذكر البخاري - في الصحيح - عن أم الدَّرداء ﵂ قالت: دخل علي أبو الدرداء مغضبًا فقلت له: مالك؟! فقال: واللَّه ما أعرف فيهم شيئًا من أمر محمدٍ إلا أنهم يُصلُّون جميعًا.

وروى مالك في الموطأ عن عمه أبي سهيل بن مالك عن أبيه أنه

= الإسلام بَدَأَ بها ويعُودُ إليها كما في قوله ﷺ في حديث مسلم: «بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء»، وذلك أنَّ كثيرًا من الناس قد استبدلوا بالسُنَن بدعًا وأمورًا محدثة من عند أنفسهم ما أنزل اللَّه بها من سلطان، وأنزلوها منزلة السُنن الثَّابتة، حتى إذا أنكرها المُنكر قالوا: غُيِّرت السنن!! كما أشار إلى ذلك الصحابي الرَّبانيُ عبد اللَّه بن مسعود ﵁، وما دَرَوا أنهم هم مَن غير سُنَن الهادي ﷺ وأحلَّ محلَّها البدع والمحدثات في دينه وشريعته، ومن أعظم ما ينطبق عليه هذا المعنى ما وقع من الضلالة في شأن القبور حيث شَرَع الناس لهم فيها دينًا غير ما جاء به محمد ﷺ.

يقول العلامة صِدِّيق حسن ﵀ فيما نقله عنه صاحب تُحْفة الأحْوذِي عند أحاديث النهي عن اتخاذ القبور مساجد (٦/ ٢٠٠): «وتأمل هذه الأحاديث وما كان عليه السلف يتبيَّن لك بذلك غُربة الإسلام، خصوصًا إن عرفتَ عظيم ما وقع فيه الكثيرُ بعد القرون المفضَّلةِ من تعظيم القبور واتخاذها المساجد والإقبال إليها بالقلب والوجه، وصرف الدعوات والرغبات والرهبات وأنواع العبادات التي هي حق اللَّه تعالى إليها من دونه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

قال: ما أعرف شيئًا مما أدركتُ عليه الناس، إلا النداء بالصلاة. يعني الصحابة ﷺ.

وقال الزهري: دخلتُ على أنس بن مالك - بدمشق - وهو يبكي، فقلت له: ما يُبكيك؟! فقال: ما أعرف شيئًا مما أدركتُ إلا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضُيِّعت. ذكره البخاري. وفي لفظ آخر: ما كنت أعرف شيئًا على عهد رسول اللَّه ﷺ إلا قد أنكرتُه اليوم. وقال الحسن البصري: سأل رجلٌ أبا الدرداء ﷺ فقال: رحمك اللَّه لو أن رسول اللَّه ﷺ بين أظهرنا، هل كان ينكر شيئًا مما نحن عليه؟؟ فغضب واشتد غضبه، وقال: وهل كان يعرف شيئًا مما أنتم عليه؟!.

وقال المبارك بن فضالة: صلَّى الحسنُ الجمعة، وجلس فبكى، فقيل له: ما يبكيك يا أبا سعيد؟؟ فقال: تلوموننني على البكاء!! ولو أن رجلًا من المهاجرين اطَّلع من باب مسجدكم ما عرف شيئًا مما كان عليه على عهد رسول اللَّه - أنتم اليوم عليه - إلا قبلتكم هذه!!.

وهذه هي الفتنة العظمى التي قال فيها عبد اللَّه بن مسعود ﷺ: كيف أنتم إذا لبستكم فتنة، يَهرم فيها الكبير، ويَنشأ فيها الصغير، تجري على الناس، يتخذونها سُنة، إذا غُيِّرت، قيل: غُيِّرت السُنة أو هذا منكر.

[العمل إذا جرى على خلاف السنة فلا عبرة به، ولا التفات إليه]

وهذا مما يدل على أن العمل إذا جرى على خلاف السُّنَّة فلا عبرةَ

به، ولا الْتفاتَ إليه، فإنَّ العمل قد جرى على خلاف السُّنة منذ زمن أبي الدرداء وأنس كما تقدم.

وذكر أبو العباس أحمد بن يحيى قال: حدثني محمد بن عبيد بن ميمون حدثني عبداللَّه بن إسحق الجعفري قال: كان عبداللَّه بن الحسن يُكثر الجلوس إلى ربيعة، قال: فتذاكروا يوما السُّنَنَ، فقال رجل - كان في المجلس .: ليس العملُ على هذا، فقال عبدالله: أرأيت إن كثُر الجُهَّال حتى يكونوا هم الحُكام، فهم الحُجة على السُّنة؟؟!! فقال ربيعة: أشهد أن هذا كلام أبناء الأنبياء[1].

---

(١) وهذه الآثار وما قارب معناها من إنكار السلف لما أحدث في زمانهم من البدع مما نعلم به أن السُّنَّة في زماننا هذا لن تكون أظهر مما كانت عليه في ذلك الزمان، زمان أنس وأبي الدرداء والحسن رضي اللَّه عنهم، بل هي في زماننا هذا أشدُّ غربة وأبعد عن أحوال الناس، وذلك يوجب على المسلم أن يُعْظم حرصُه على التمسك بسنة المصطفى ﷺ فَيَعَضَّ عليها بأقوى نواجذه ويؤثرها على ما سواها من البدع والمحدثات التي درج عليها الناس واعتادوها سواء كانت في العقائد أو العبادات، فالعبرة إنما هي بما ثبت من سنة رسول اللَّه ﷺ، وليس بالعادات والموروثات، وليعلم كل ناصح لنفسه أن النجاة بأطرافها عند اللَّه تعالى إنما هي في التمسك بسنة الهادي ﷺ، الذي تركنا على المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك كما أخبر بذلكﷺ، والذي ما ترك شيئا يقرب الناس إلى ربهم تعالى إلا وقد شرعه ﷺ لهم ودلهم عليه، ثم أغلق بعد ذلك باب المحدثات وزيغ الأهواء:

فالدين إنما أتى بالنقل ليس بالاوهام وحدس العقل

كما قال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا=

فَصلٌ

ومن أعظم مكايد الشيطان الأنصاب والأزلام

ومن أعظم مكايده: ما نَصَبَهُ للناس من الأنْصاب والأزْلام التي هي من عَمِلِه، وقد أمر اللَّه تعالى باجتناب ذلك، وعلَّق الفلاح باجتنابه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

= عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة».

ورحم اللَّه الإمام الشاطبي إذ يحدِّثُنا عن نفسه فيقول: (فلما أردتُ الاستقامة على الطريق وجدتُ نفسي غريبًا في جمهور أهل الوقت، لكون خططهم قد غلبت عليها العوائد، ودَخَلَتْ على سننها الأصلية شوائبُ من المحدثات الزوائد، ولم يكن ذلك بدعًا في الأزمنة المتقدمة فكيف في زماننا هذا (وذكر شيئًا من الآثار المذكورة أعلاه ثم قال): فتردَّدَ النَّظَر بين أن أتَّبع السُّنَّة على شرْط مخالفة ما اعتاد الناس، فلا بد من حصول نحوٍ مما حصل لمخالفي العوائد، لاسيما إذا ادَّعى أهلُها أنَّ ما هم عليه هو السنة لا سواها!! إلا أن في ذلك العبء الثقيل ما فيه من الأجر الجزيل، وبين أن أتَّبعهم على شرط مخالفة السنة والسلف الصالح!! فأدخل تحت ترجمة الضلال!! - عائذًا باللَّه من ذلك - إلا أني أوافق المعتاد!! وأُعَدُّ من المؤالفين لا من المخالفين!! فرأيت أن الهلاك في اتباع السنة هو النجاة وأن الناس لن يغنوا عني من اللَّه شيئًا، فأخذت في ذلك على حكم التدريج في بعض الأمور، فقامت عليَّ القيامة، وتواترت علي الملامة، وفوَّق إليَّ العتابُ سهامَه، ونُسبت إلى البدعة والضلالة، وأُنزلت منزلة أهل الغباوة والجهالة..) إلى آخر كلامه رحمه اللَّه تعالى. الاعتصام ١/ ٢٧.

[بيان معنى الأنصاب]

فالأنْصاب كلُّ ما نُصب يُعبد من دون اللَّه، من حجر، أو شجر، أو وثن، أو قبر، وهي جمعٌ واحدها نَصْبٌ كطَنْبٌ وأطناب، قال مجاهد وقتادة وابن جريج: كانت حول البيت أحجار، كان أهل الجاهلية يذبحون عليها، ويشْرحون اللحم عليها، وكانوا يعظِّمون هذه الحجارة ويعبدونها، قالوا: وليست بأصنام، إنما الصنم ما يُصور ويُنقش. وقال ابن عباس: هي الأصنام التي يعبدونها من دون اللَّه تعالى. وقال الزجاج: حجارة كانت لهم يعبدونها، وهي الأوثان.

وقال الفراء: هي الآلهة التي كانت تُعبد من أحجار وغيرها. وأصل اللفظة: الشيء المنصوب الذي يقصده من رآه، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

قال ابن عباس: إلى غاية أو عَلَمٍ يسرعون، وهو قول أكثر المفسرين.

وقال الحسن: يعني إلى أنصابهم، أيهم يستلمها أولًا. قال الزجاج: وهذا على قراءة من قرأ نُصُبٍ بضمتين، كقوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣].

قال: ومعناه: أصنام لهم. والمقصود: أن النُصُب كل شيء نُصِبَ، من خشبة، أو حجر، أو علم، والإيفاض: الإسراع.

وأما الأزلام: فقال ابن عباس ﷺ: هي قِدَاحٌ كانوا يستقْسِمون بها الأمور، أي يطلبون بها عِلْم ما قُسم لهم. وقال سعيد بن جبير: كانت لهم حَصَيَات، إذا أراد أحدُهم أن يغزوَ، أو يجلس، استقْسم بها.

وقال - أيضًا -: هي القَدَحان اللذان كان يستقسم بهما أهل الجاهلية في أمورهم، أحدهما عليه مكتوب: أمرني ربي، والآخر: نهاني ربي، فإذا أرادوا أمرًا ضربوا بها، فإن خرج الذي عليه: أمرني، فعلوا ما هموا به، وإن خرج الذي عليه: نهاني، تركوه.

وقال أبو عبيد: الاستقسام: طلب القسمة. وقال المبرد: الاستقسام: أخذ كل واحد قَسَمَه. وقيل الاستقسام: إلزام أنفسهم بما تأمرهم به القداح كقَسَم اليمين، وقال الأزهري: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ [المائدة: ٣].

أي: تطلبوا من جهة الأزلام ما قُسم لكم من أحد الأمرين. وقال أبو إسحاق الزجاج وغيره: الاستقسام بالأزلام حرام، ولا فرق بين ذلك وبين قول المنجم: لا تخرج من أجل نجم كذا، واخرج من أجل طلوع نجم كذا، لأن اللَّه تعالى يقول: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤].

وذلك دخولٌ في علم اللَّه ﷻ الذي هو غيب عنا، فهو حرامٌ كالأزلام التي ذكرها اللَّه تعالى.

والمقصود: أن الناس قد ابْتُلوا بالأنصاب والأزلام، فالأنصاب: للشرك والعبادة، والأزلام: للتكهن وطلب علم ما استأثر اللَّه به، هذه للعلم، وتلك للعمل، ودين اللَّه ﷻ مضادٌ لهذا وهذا. والذي جاء به رسول اللَّه ﷺ إبطالُهما، وكسرُ الأنصاب والأزلام، فمن الأنصاب ما قد نصبه الشيطان للمشركين، من شجرةٍ، أو عمودٍ، أو وثنٍ، أو قبرٍ، أو خشبةٍ، أو عينٍ، ونحو ذلك.

والواجبُ هدْم ذلك كلِّه، ومحْوُ أثرِه، كما أمر النبي عليًّا ﷺ بهدم القبور المشرفة[1]، وتسويتها بالأرض، كما روى مسلم في

---

(١) وقد تساءَلَ العلامةُ حسين بن مهدي النُّعمي التهامي ﷺ عن حال هؤلاء المعظِّمين للقبور المشيِّدين لها كيف سيكون حالهم إذا ورد عليهم رسول رسول اللَّه ﷺ قائلًا: بعثني رسول اللَّه ﷺ: «ألا أدع تمثالًا إلا طمسته ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته»؟!، وكيف يكون جوابهم له؟! وبم يردون على رسول رسول اللَّه ﷺ؟!، وإليك كلامه ﷺ من كتابه معارج الألباب (ص٥١):

«وليت شِعْرِي كيف بهم إذا لم يَرُعْهم إلا نُزول الإمام الأظْهر، وصاحب السَّبْق الأشْهر، عليٌّ ﷺ ونضَّر، بساحتِهم يقول: بعثي رسول اللَّه ﷺ ألا أَدَعَ قبرًا مُشرفًا إلا سويتُه ولا تمثالًا إلا طمستُه؟؟ فعلى الذي يُشاهد من حالهم كأنَّا بهم وقد ثَاروا ذلك المَثَار، وأخذوا لتلك المعاقل بالثَّار، وأرجعُوا عليًا القَهْقَرَى، وتركوه زاحفًا على الوراء، وقالوا: أذيةٌ لأولياء الله!! ورأى من درى، فالأمر الآن هو ذاك بعينه ما الذي تَرك الناس سُدًى أو غيَّر معالم الهُدى؟؟ ثم كيف الخطب لديهم في هذه الأبْنِيةِ على الأموات، المُعدَّة للتلاوة والصلوات، المشتملة على المحاريب والفُرش والسُّرج وسائر الآلات، إذا أتاهم في شأنها=

صحيحه عن أبي الهيَّاج الأسدي قال: قال لي علي ﷺ: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول اللَّه ﷺ ألا أدع تمثالًا إلا طمستُه، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويتُه.

وعمَّى الصحابة بأمر عمر ﷺ قبر دانيال، وأخفوه عن الناس، ولما بلغه أن الناس ينتابون الشجرة التي بايع تحتها رسول اللَّه ﷺ أصحابه، أرسل فقطعها، رواه ابن وضاح في كتابه، فقال: سمعت عيسى بن يونس يقول: أمر عمر بن الخطاب ﷺ بقطع الشجرة التي بُويع تحتها النبي ﷺ، فقطعها، لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها، فخاف عليهم الفتنة.

قال عيسى بن يونس: وهو عندنا من حديث ابن عون عن نافع: أن الناس كانوا يأتون الشجرة فقطعها عمر ﷺ، فإذا كان هذا فعل عمر ﷺ بالشجرة التي ذكرها اللَّه تعالى في القرآن، وبايع تحتها الصحابةُ رسولَ اللَّه ﷺ، فماذا حكمُهُ فيما عداها من هذه الأنصاب والأوثان التي قد عظمت الفتنة بها؟؟ واشتدت البلية بها؟؟.

= رسول صاحب الوحي المُنزل، والهدي السَّويِّ الأعْدل، يقول: بعثني لإزالة ما قد تقدم إليكم بالنهي عنه من اتخاذ القبور مساجد، ورواه لكم عدد من صحابته الجُلة الأَمَاجِد، وقد أكَّدَ اللَّه عليكم في الإجابة له ولرسوله فماذا أنتم صانعون؟؟؟».

[حكم الإسلام في المساجد المبنية على القبور]

وأبلغ من ذلك أن رسول اللَّه ﷺ هدم مسجد الضرار، ففي هذا دليلٌ على هدم ما هو أعظم فسادًا منه، كالمساجد المبنية على القبور، فإن حكم الإسلام فيها: أن تهدم كلها حتى تسوى بالأرض. وهي أولى بالهدم من مسجد الضرار، وكذلك القِباب التي على القبور يجب هدمها كلها، لأنها أسست على معصية الرسول ﷺ، لأنه قد نهى عن البناء على القبور كما تقدم، فبناءٌ أسس على معصيته ومخالفته بناءٌ غير محترم، وهو أولى بالهدم من بناء الغاصب قطعًا.

وقد أمر رسول اللَّه بهدم القبور المشرفة - كما تقدم - فهدْمُ القباب والبناء والمساجد التي بنيت عليها أولى وأحرى[1]، لأنه لعن متخذي المساجد عليها، ونهى عن البناء عليها، فيجب المبادرة والمساعدة إلى هدم ما لعن رسول اللَّه فاعله ونهى عنه، واللَّه ﷻ يقيم لدينه وسنة رسوله

---

(١) ويؤكِّدُ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ على هذا المعنى في زاد المعاد (٣/ ٥٠٦) وهو يُعدد فوائد قصة وفد ثقيف على رسول اللَّه ﷺ فيقول: «ومنها: أنه لا يجُوزُ إبقاءُ مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يومًا واحدًا، فإنها شعائر الكفر والشرك، وهي أعظم المنكرات، فلا يجوزُ الإقرارُ عليها مع القدرة البتة، وهذا حُكْم المشاهد التي بُنِيَتْ على القبور التي اتخذت أوثانا وطواغيت تُعْبَدُ من دون اللَّه، والأحجار التي تُقْصَدُ للتَّعظيم والتَّبركِ والنَّذر والتقبيل لا يجوز إبْقَاءُ شيءٍ منها على وجه الأرض مع القُدْرَة على إزالته، وكثيرٌ منها بمنزلة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، أو أعظمُ شركًا عندها وبها واللَّه المستعان».

من ينصرهما ويذب عنهما، فهو أشد غيرةً وأسرع تغييرًا، وكذلك يجب إزالة كل قِنديل أو سراج على قبر وطَفْيُه فإن فاعل ذلك ملعون بلعنة رسول اللَّه، ولا يصح هذا الوقف، ولا يحل إثباته وتنفيذه.

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي: «انظروا - رحمكم اللَّه - أينما وجدتم سدرةً أو شجرةً يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البرء والشفاء من قبلها ويضربون بها المسامير والخرق فهي ذات أنواط فاقطعوها».

وقال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة في كتاب الحوادث والبدع:

«ومن هذا القسم أيضًا ما قد عم به الابتلاء من تزيين الشيطان للعامة تخْلِيْق الحيطان والعمد، وسرْج مواضع مخصوصة من كل بلد، يحكي لهم حاكٍ: أنه رأى في منامه بها أحدًا ممن شُهر بالصلاح والولاية فيفعلون ذلك ويحافظون عليه[1]، مع تضييعهم فرائض اللَّه

---

(١) وأكثر العَوَامِّ هَوَامٌ، هَمَجٌ رَعَاعٌ، أتبَاع كل نَاعِقٍ لم يستضيئوا بالعلم ولم يلجؤوا منه إلى رُكن وثيق، ولذلك تجدهم يتلقَّفون كل كذبة، ويستسلمون لكل تَدْجيل وتضْليل ممن جاء به، من غير تمييز بين صدق وكذب وحق وباطل ومشروع وممنوع، وهذا شأنهم في كل زمان ومكان، وهذا شأن من حَرَمَه اللَّه البصيرةَ في الدِّين وزكاةِ العقل، تعْبثُ به كلُّ خُرافةٍ، وتسْتَهويْه كلُّ أُكذُوبةٍ وضَلالة، ومن لم يجعل اللَّه له نورًا فما له من نور.

وسُنَنَه، ويظنون أنهم متقرِّبون بذلك، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يَعْظُم وقْع تلك الأماكن في قلوبهم فيعظمونها، ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لها، وهي من بين عيون وشجر وحائط وحجر، وفي مدينة دمشق من ذلك مواضع متعددة، كعوينة الحمى خارج باب توما، والعمود المخلق داخل باب الصغير، والشجرة الملعونة اليابسة خارج باب النصر في نفس قارعة الطريق سهل اللَّه قطعها واجتثاثها من أصلها، فما أشبهها بذات أنواط التي في الحديث، ثم ساق حديث أبي واقد: أنهم مرُّوا مع رسول اللَّه بشجرة عظيمة خضراء يقال لها: ذات أنواط، فقالوا: يا رسول اللَّه اجعل لنا ذاتَ أنواط كما لهم ذاتُ أنواط، فقال النبي ﷺ: «**اللَّه أكبر!! هذا كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾** [الأعراف: ١٣٨] **لتركبُن سَنَن من كان قبلكم**». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

ثم ذكر ما صنعه بعض أهل العلم ببلاد إفريقية أنه كان إلى جانبه عينٌ تُسمى عين العافية كان العامة قد افتتنوا بها يأتونها من الآفاق، فمن تعذَّر عليه نكاحٌ أو ولدٌ قال: امضوا بي إلى العافية، فيُعرف فيها الفتنة، فخرج في السَّحر فهدمها، وأذَّن للصبح عليها، ثم قال: اللهم إني هدمتها لك، فلا ترفع لها رأسًا، قال: فما رُفع لها رأسٌ إلى الآن».

وقد كان بدمشق كثيرٌ من هذه الأنصاب فيسّرَ الله - سبحانه - كسرها على يد شيخ الإسلام وحزب اللَّه الموحدين، كالعمود المخلَّق، والنَّصب الذي كان بمسجد النارنج عند المصلى يعبده الجُهَّال، والنَّصب الذي كان تحت الطاحون الذي عند مقابر النصارى، ينْتَابُه الناس للتبرك به، وكان صورةُ صنم في نهر القلّوط ينذرون له ويتبركون به، وقَطَعَ اللَّه - سبحانه - النَّصب الذي كان عند الرحبة يُسرج عنده، ويتبرك به المشركون، وكان عمودًا طويلًا على رأسه حجر كالكُرة، وعند مسجد درب الحجر نَصْب قد بُني عليه مسجدٌ صغيرٌ يعبده المشركون - يسر اللَّه كسره.

فما أسرعَ أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون اللَّه ولو كانت ما كانت، ويقولون إن هذا الحجر وهذه الشجرة وهذه العين تقْبلُ النذر!! أي: تقبل العبادة من دون اللَّه تعالى، فإن النذر عبادة وقربة يَتقرَّب بها النَّاذر إلى المنذور له، ويتمسَّحُون بذلك النَّصب ويستلمونه.

[إنكار السلف التمسح بحجر مقام إبراهيم الذي امرنا ان نتخذ منه مصلى]

ولقد أنكر السَّلف التَّمسُّح بحجر المقام الذي أمر اللَّه تعالى أن يُتخذ منه مُصلى كما ذكر الأزرُقي في كتاب تاريخ مكة عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

قال: إنما أُمروا أن يُصلوا عنده، ولم يؤمروا بمسحه، ولقد تكلَّفت هذه الأمة شيئًا ما تكلفته الأمم قبلها، ذُكر لنا مَن رأى أثرَه

وأصابَعه، فما زالت هذه الأمة تمسحه حتى اخْلوْلق.

وأعظم الفتنة بهذه الأنصاب: فتنة أنصاب القبور وهي أصل فتنة عبادة الأصنام كما قاله السلف من الصحابة والتابعين وقد تقدم.

[من أعظم الفتنة بالأنصاب فتنة أنصاب القبور التي هي أصل عبادة الأصنام]

ومن أعظم كيد الشيطان: أنه يَنصب لأهل الشرك قبر معظَّم يُعظمه الناس، ثم يجعله وثنًا يُعبد من دون اللَّه، ثم يُوحي إلى أوليائه أن من نَهى عن عبادته واتخاذِه عيدًا وجعلِه وثنًا فقد تنقَّصَهُ وهَضَم حقَّه، فيسعى الجاهلون المشركون في قتله وعقوبته، ويكفرونه، وذنبُه عند أهل الإشراك أمرُه بما أمر اللَّه به ورسوله، ونهيُه عما نهى اللَّه عنه ورسوله، مِن جعلِه وثنًا وعيدًا وإيقادَ السُرج عليه وبناءَ المساجد والقباب عليه، وتجصيصِه وإشادتِه، وتقبيلِه واستلامِه، ودعائِه أو الدعاءِ به، أو السفر إليه أو الاستغاثة به من دون اللَّه، مما قد عُلم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضادٌ لما بعث اللَّه به رسوله من تجريد التوحيد لله، وألَّا يُعبد إلا اللَّه، فإذا نهى الموحِّد عن ذلك غضب المشركون واشْمأزَّت قلوبُهم.

وقالوا: قد تنقَّص أهل الرُتب العالية!! وزعَمَ أنهم لا حرمة لهم ولا قدر!![1] وسَرَى ذلك في نفوس الجُهال والطِّغام وكثيرٍ ممن يُنسب

---

(١) وكم ضَلَّلَ دُعاة القبور أتباعَهم ومقلديهم بهذه المقالة، ودخلوا على عقولهم من هذا الباب، زاعمين أن النهيَ عما نهى اللَّه عنه ورسوله ﷺ من تعظيم الموتى=

= وتشييد قبورهم والاعتقاد والغلو فيهم تنقصٌ لهم وتقليلٌ من شأنهم بل وعداوة لهم، وكم لهجوا في ذلك بحديث: «من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب»، وما هي - واللَّه - بعداوةٍ لأولياء اللَّه ولا غضٌ من مراتبهم العلية، فلأولياء اللَّه تعالى والصالحين من عباده مرتبةٌ يعرِفُها كل مؤمن ويقر بها كل مسلم، كيف واللَّه تعالى يقول: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

والمقصودُ: أن النهيَ عما يُفعل عند قبور الصالحين من الشِّرك و البدع ليس فيه أدنى تنقصٍ لهم ولا غضٍ من أقدارهم، وإنما هو أمرٌ بما أَمَرَ اللَّه به ورسولُه ﷺ، ونهيٌ عما نَهَى اللَّه عنه ورسوله ﷺ، ودعوةٌ إلى ما كان عليه خِيَارُ الأمة قبل حدوث هذه البدع، وقد كان خير الخلق أجمعين - بأبي هو وأمي ﷺ - ينْهَى عن الغُلُوِّ فيه فيقول - كما في حديث أنس ﷺ في سنن النسائي بسند جيد -: «يا أيها الناس قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يَسْتَهْوِيَنَّكُم الشيطان، أنا محمد عبد اللَّه ورسوله ما أُحِبُّ أن تَرفعُوني فوقَ منْزِلتي التي أنْزَلني اللَّه ﷻ» ويقول - كما في مسند أحمد وسنن الترمذي -: «إيَّاكم والغُلوَّ فإنما أهلك من كان قبلكم الغُلُوُّ» وأيَّ وَلِيٍّ هذا الذي يَطلب من الخلق أو يَرضى منهم بأن يُعظِّمُوه ويقدِّسُوه ويَصْرِفُوا العبادات والقربات إليه، ويُشيدوا قبره ويعكفوا عليه؟!! فمن كان كذلك فليس من الأولياء ولا كَرَامَة.

والذي نعْتقِدُه: أن أولياء اللَّه تعالى والصالحين من عباده بريئُون من هذه الخرافات الشركية والضلالات البدعية التي تحدث على قبورهم، فما كان لوَلِيٍّ أو صالح أن يَرْضى بما يُغضب اللهَ ورسولَه ﷺ، أو يدعوَ إلى خلاف ما كان عليه السلف الصالحون.

يقول العلامة حسين بن مهدي النُّعمي التِّهامي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه معارج الألباب (٤٠): «وليست الوِلايةُ إلا الإتِّباع لرسل للَّه، واقتفاءُ آثارِهم، والوُقُوف عند حدود شرعتهم، الذي منه: الإذعانُ لحُرمة اتِّخاذِ القُبور مساجد، والانْتهاء عن=

إلى العلم والدين، حتى عادَوا أهلَ التوحيد، ورموهم بالعظائم، ونفَّروا الناس عنهم، ووالَوا أهلَ الشرك وعظَّمُوهم، وزعموا أنهم هم أولياء الله!! وأنصار دينه ورسوله!! ويأبى اللَّه ذلك، فما كانوا أولياءَه، إن أولياؤُه إلا المتَّبعون له، الموافقون له، العارفون بما جاء به، الداعون إليه، لا المُتَشَبِّعُون بما لم يُعْطَوا لابسُو ثياب الزور، الذين يصدُّون الناس عن سنة نبيهم، ويبغونها عوجًا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

* * *

= بناء القباب والمشاهد، والكفُّ عما هو من هذا القبيل مما حذَّر منه سفيرُ الأمناء ﷺ... فذاك ميزانُ الفُرقان بين أولياءِ الرحمن وأولياءِ الشيطان».

وقد ذكر الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ في شذرات الذهب (٤/ ٢٠١) أن الشيخ علي بن إدريس سأل الشيخ عبد القادر فقال: يا سيدي هل كان لله وليٌّ على غير اعتقاد أحمد بن حنبل؟! قال: «ما كان ولا يكون».

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ كتابه اقتضاء الصراط (١/ ٣٨٣): «فلا يحْسَب المرءُ المسلمُ أن النَّهيَ عن اتِّخاذِ القُبُورِ أعيادًا وأوثانًا فيه غضٌّ من كَرامةِ أصحابها، بل هو من باب إكرامِهم، وذلك أن القلوب إذا اشتغلت بالبدع أعْرَضَت عن السُّنَن، فتجد أكثرَ هؤلاء العاكفين على القبور مُعْرِضِين عن سُنة ذلك المَقْبُورِ وطَرِيْقِه، مشتغلين بقَبْرِهِ عمَّا أَمَر به ودَعَا إليه».

وقد بيَّن ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ذلك - فيما يأتي من كلامه قريبًا - فتأمَّلْهُ فإنَّهُ قَطْرُ نَدَى وَبَلُّ صَدَى لمن أراد اللَّه تعالى به خيرًا ليميِّز بين حقوقهم وطريق الأدب معهم وبين السلوك البدعي الخرافي المنافي لما كانوا عليه من الصلاح والهداية والسُّنَّة.

فَصْلٌ

ولا تحسب - أيها المنعم عليه باتباع صراط اللَّه المستقيم صراط أهل نعمته ورحمته وكرامته - أن النهيَ عن اتخاذ القبور أوثانًا وأعيادًا وأنصابًا، والنهيَ عن اتِّخاذِها مساجد، أو بناءِ المساجد عليها، وإيقادِ السُرج عليها، والسفر إليها، والنذر لها، واستلامها وتقبيلها، وتعفير الجباه في عَرَصَاتِها، غضٌ من أصحابها، ولا تنقيصٌ لهم ولا تنقصٌ، كما يحسبُه أهل الإشراك والضَّلال، بل ذلك من إكرامِهم وتعظيمِهم واحترامِهم ومتابعتِهم فيما يحبونه وتجنب ما يكرهونه[1].

---

(١) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في اقتضاء الصراط (١/ ٣٧٧) مبينًا الواجب الذي يلزم الناس تجاه علمائهم وصالحيهم: «وهؤلاء الفُضَلاء من الأمَّة إنَّما ينبغي محبتُهم واتباعُهم وإحياءُ ما أحْيَوهُ من الدِّين، والدعاءُ لهم بالمغفرة والرحمة والرضوان ونحو ذلك، فأمَّا اتِّخاذُ قبورِهم أعيادًا فهو مما حرَّمَهُ اللهُ ورسولُه، واعتيادُ قَصْدِ هذه القبور في وقت معين والاجتماع العام عندها في وقت معين هو اتِّخاذُها عيدًا كما تقدم، ولا أعلمُ بين المسلمين أهل العلم في ذلك خلافًا، ولا يُغْترَّ بكَثْرَةِ العَادَات الفاسدةِ، فإنَّ هذا من التَّشَبُّه بأهل الكتابَين الذي أخبرنا النبي ﷺ أنه كائنٌ في هذه الأمة».

ويقول - أيضًا - في اقتضاء الصراط (١/ ٣٣٦): «وإنَّما حُقُوقُ الأنبياء في تعْزيرِهم وتوقيرِهم ومحبَّتِهم محبةً مقدَّمةً على النفس والمال والأهل، وإيثارِ طاعتِهم، ومتابعة سننهم، ونحو ذلك من الحقوق التي من قام بها لم يقُم بعبادتهم والإشراك بهم، كما أن عامَّة من يُشرك بهم شركًا أكبر أو أصغر يَترك=

فأنتَ واللَّه وليُّهم ومُحبُّهم وناصرُ طريقتِهم وسنَّتِهم، وعلى هديهم ومنهاجهم، وهؤلاء المشركون أعصى الناس لهم، وأبعدهم من هديهم ومتابعتهم، كالنصارى مع المسيح واليهود مع موسى عليهما السلام والرافضة مع علي رضي الله عنه، فأهلُ الحق أولى بأهل الحق من أهل الباطل، فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض.

فاعلم أن القلوبَ إذا اشتغلت بالبدع أعرضت عن السُنَن، فتجد أكثر هؤلاء العاكفين على القبور معرضين عن طريقة من فيها وهديه وسنته، مشتغلين بقبره عما أَمَر به ودعَا إليه.

وتعظيمُ الأنبياء والصالحين ومحبتُهم إنما هي باتباع ما دعوا إليه من العلم النافع والعمل الصالح، واقتفاءِ آثارهم وسلوك طريقتهم، دون عبادة قبورهم والعكوف عليها واتخاذها أعيادًا، فإن من اقتفى آثارهم كان متسببًا إلى تكثير أجورهم باتباعه لهم ودعوته الناس إلى اتباعهم، فإذا أعرض عما دَعوا إليه واشتغل بضده حَرَم نفسه وحرمهم ذلك الأجر، فأي تعظيمٍ لهم واحترام في هذا؟!.

وإنما اشتغل كثيرٌ من الناس بأنواع من العبادات المبتدعة التي

= ما يجب عليه من طاعتهم بقدر ما ابتدعه من الإشراك بهم، وكذلك حُقُوقُ الصِّديقين المحبةُ والإجلالُ ونحو ذلك من الحقوق التي جاء بها الكتاب والسنة وكان عليها سَلَفُ الأُمَّةِ».

يكرهها اللَّه ورسوله لإعراضهم عن المشروع أو بعضه، وإن قاموا بصورته الظاهرة فقد هجروا حقيقته المقصودةَ منه، وإلا فَمَن أقْبل على الصلوات الخمس بوجهه وقلبه، عارفًا بما اشتملت عليه من الكلم الطيب والعمل الصالح، مهتمًا بها كل الاهتمام أغْنَتْه عن الشرك، وكلُّ من قصَّر فيها أو في بعضها تجد فيه من الشرك بحسب ذلك. ومن أصغَى إلى كلام اللَّه بقلبه وتدبَّره وتفهمه أغناه عن السماع الشيطاني الذي يصدُّ عن ذكر اللَّه وعن الصلاة، ويُنبتُ النِّفاق في القلب، وكذلك من أصغى إليه وإلى حديث الرسول ﷺ بكليَّتِه وحدَّث نفسه باقتباس الهدى والعلم منه لا من غيره أغناه عن البدع والآراء والتخرصات والشطحات والخيالات، التي هي وساوس النفوس وتخيلاتها، ومن بَعُد عن ذلك فلابد له أن يتعوَّض عنه بما لا ينفعه، كما أن مَن غَمَرَ قلبه بمحبة اللَّه تعالى وذكرِه وخشيتِه والتوكل عليه والإنابة إليه أغناه ذلك عن محبة غيره وخشيته والتوكل عليه، وأغناه أيضًا عن عِشْقِ الصُّور، وإذا خلا من ذلك صار عبْدَ هواه، أيُّ شيء استحسنه مَلَكَه واستعبده، فالمعرضُ عن التوحيد مشركٌ شاء أو أبى، والمعرضُ عن السُّنة مبتدعٌ ضالٌ شاء أم أبى، والمعرضُ عن محبة اللَّه وذكرِه عَبْدُ الصُّور شاء أم أبى، واللَّه المستعان وعليه التُّكلان ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم.

* * *

[أسباب افتتان عباد القبور بها مع العلم أن ساكنيها أموات لا يملكون لهم ضرًّا ولا نفعا]

فَصْلٌ

فإن قيل: فما الذي أوقع عُبَّاد القُبور في الافتتان بها؟؟ مع العلم بأن ساكنيها أمواتٌ لا يملكون لهم ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا؟

قيل: أوقعهم في ذلك أمورٌ:

منها: الجهلُ بحقيقة ما بعث اللَّه به رسوله، بل جميعَ الرسل من تحقيق التوحيد وقطع أسباب الشرك، فقلَّ نصيبُهم جدًا من ذلك ودعاهم الشيطان إلى الفتنة ولم يكن عندهم من العلم ما يبطل دعوته فاستجابوا له بحسب ما عندهم من الجهل وعُصِمُوا بقدْر ما معهم من العلم[1].

---

(١) يقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في زاد المعاد (٣/٥٠٦) بعد تأكيده على وجوب هدْم المشاهد المبنيَّة على القبور مشيرًا إلى أثر الجهل في انتشار الشرك وغَلَبَةِ الضَّلالَة على كثيرٍ من الخلق:

«فاتَّبع هؤلاء سَنَنَ من كان قبلهم، وسلكُوا سبيلهم حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة، وأخَذُوا مأخذهم شِبْرًا بشِبْرٍ وذراعًا بذراع، وغَلَبَ الشِّركُ على أكثر النُّفوس، لظهور الجهل وخَفَاءِ العلم، فصار المعروف منكرًا والمنكر معروفا، والسُّنة بدعةً والبِدعةُ سُنَّة، ونَشَأ في ذلك الصغير وهَرَم عليه الكبير، وطُمست الأعلام،=

[عباد القبور هم أكذب خلق اللَّه تعالى على الأحياء والأموات]

ومنها: أحاديثُ مكذوبة مختَلَقَة وَضَعَها أشباهُ عبَّادِ الأصنام من المَقَابريَّة على رسول اللَّه ﷺ تُناقض دينه وما جاء به كحديث: «إذا أَعْيَتْكُمُ الأمور فعليكم بأصحاب القبور»[1] وحديث: «لو أحسنَ أحدُكم ظَنَّه بحَجَرٍ نفعه»[2] وأمثالُ هذه الأحاديث التي هي مناقضة

= واشتدت غُربة الإسلام، وقلَّ العلماءُ، وغلب السُّفهاء، وتَفَاقَمَ الأمر، واشتَدَّ البَأْس، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ولكن لا تزال طائفةٌ من العِصَابَةِ المحمدية بالحق قائمين، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين إلى أن يرث اللَّه سبحانه الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين». جعلني اللَّه - وإياك أخي القارئ - منهم وحشرنا في زمرتهم اللهم آمين.

(١) يقول العلامة الآلوسي رَحِمَهُ اللَّهُ في روح المعاني (٦/ ١٢٧): «وأعظم من ذلك أنهم يطلبون من أصحاب القبور نحو إشْفاء المريض وإغْناءِ الفقير وردِّ الضَّالة وتيسير كل عسير، وتُوحي إليهم شياطينهم خبر: [إذا أعْيَتْكُمُ الأمور... الخ] وهو حديثٌ مفترىً على رسول اللَّه ﷺ بإجماع العارفين بحديثه، لم يرْوِهِ أحدٌ من العلماء، ولا يوجدُ في شيءٍ من كُتب الحديث المعْتَمَدَةِ، وقد نهى النبي ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد ولعن على ذلك، فكيف يُتصَوَّرُ منه - عليه الصلاة والسلام - الأمرُ بالاستغاثة والطلب من أصحابها؟! سبحانك هذا بهتان عظيم».

(٢) يقول الشيخ العلامةُ الأديبُ عقيل بن يحيى بن محمد الإرياني رَحِمَهُ اللَّهُ في آخر رسالته العظيمة المسماة (السيف الباتر لأعناق عُبَّاد المقابر): «فإن قال: ما تقولون في قوله ﷺ: «لو أحسن أحدُكم ظنَّه بحجر لنَفَعَهُ» فقل: لَعَنَ اللَّه وَاضِع هذا الحديث، والعاملُ به مناقضٌ للدين، وآمرٌ بما كان عليه المشركون، واللَّه تعالى بعث نبيه يَقتل من حسَّن ظنَّه بالأحجار، فأَغْمَدَ فيهم سيف اللَّه القاطع، =

لدين الإسلام، وضعها المشركون، وراجت على أشباههم من الجُهَّال الضُّلال، واللَّه بعث رسوله يقْتُل من حسَّنَ ظنَّه بالأحجار، وجنَّبَ أمَّتَه الفتنة بالقبور بكل طريق كما تقدم.

ومنها: حكاياتٌ حُكيَت لهم عن تلك القبور أن فلانًا استغاث بالقبر الفلاني في شدة فخلص منها، وفلانًا دعاه أو دعا به في حاجة فقُضيت له، وفلانًا نزل به ضُرٌّ فاسترجَى صاحبَ ذلك القبر فكشف ضُرَّه، وعند السَّدَنَةِ والمقابرية من ذلك شيء كثير يطول ذكره[1]، وهم من أكْذَبِ

= وتركهم صَرْعَى في البَلاقِع، ومثلُ هذه الأحاديث وَضَعَها المشركون المناقِضُون لدين الإسلام، فرَاجَت على أشباههم من الضُّلال الجُهَّال، وواضُعوها هم مشركون لا يصدِّقُون باللَّه ولا بوجوده ولا بما جاء به الرسول:

وما انتسبوا إلى الإسلام إلا ... لصوْن دمائهم عن أن تُسالا

ولكنهم خلا لهم الجَوُّ فصَفَرُوا، وأمنوا على أنفسهم فكفروا، وحلُّوا مع الجهال فقالوا: ما لنا ولمن يمنع فعْلنا؟ تاللَّه لنأتِيَنَّهم بأقوى الأدلة فنزيح بها باطلَهم وضلالَهم:

وإذا ما خلا الجبان بأرض ... طَلَبَ الطَّعن وحده والنِّزَالا».

(١) فيا لَلَّه كمْ أفسدت أكاذيبُ القبوريين التي ينسِجُونها وينسِبُونها إلى الأموات باسم (كرامات الأولياء والصالحين) من عقيدة مسلم!! وكم هَدَّمت من توحيد موحد! وإذا اعترَضَهم معترضٌ أو نازعهم منازعٌ فيما يُروِّجُونه من تلك الأكاذيب أرْغَوا عليه وأزْبَدُوا قائلين: يُنكر كرامات الأولياء!! ويشكِّك في مقاماتهم!!

يقول الإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ مشيرًا إلى حقيقة ما يفعله القُبوريون من خديعة العوامِّ والتَّلبيس عليهم بذلك كما في رسالته شرح الصدور بتحريم رفع القبور:

«وقد يَجعلُ الشَّيطانُ طائفة من إخوانه من بني آدم يقِفُون على ذلك القبر،=

= يُخادعُون من يأتي إليه من الزائرين، يُهَوِّلُون عليهم الأمر، ويصنعون أمورًا من أنفسهم، وينسبونَها إلى الميت على وجه لا يَفْطِنُ له من كان من المُغفلين، وقد يصنعون أكاذيب على أشياء يُسمونَها كرامات لذلك الميت، ويبثُّونها في الناس، ويكرِّرُون ذكْرَها في مجالسهم، وعند اجتماعهم بالناس، فتَشِيْعَ وتستفيض ويتلقاها من يُحسن الظن بالأموات، ويقْبَلُ عقلُه ما يُروى عنهم من الأكاذيب، فيرويها كما سمعها، ويتحدَّث بها في مجالسه، فيقع الجُهَّال في بليَّةٍ عظيمة من الاعتقاد الشركي، وينذرون على ذلك الميت بكَرائِم أموالهم، ويحبِسُون على قبره من أموالهم ما هو أحب إليهم من قلوبهم، لاعتقادهم أنهم ينالون بجاه ذلك الميت خيرًا عظيمًا، وأجرًا كبيرًا، ويعتقدون أن ذلك قربةٌ عظيمةٌ، وطاعةٌ نافعةٌ، وحسنةٌ متقبلةٌ، فيحصل بذلك مقصود أولئك الذين جعلهم الشيطان من إخوانه من بني آدم على ذلك القبر، فإنهم إنما فَعَلُوا تلك الأفاعيل، وهوَّلُوا على الناس بتلك التَّهاويل، وكَذَبُوا تلك الأكاذيب، لينالوا جنبًا من الحطام من أموال الطَّغام الأغتام». قلت: ومن اطَّلع على ما ألفه بعض المتأخرين في كرامات الأولياء لم يشك أنها مليئةٌ بالكذب والزُّور المختلق الذي يناقض أصول الشرع ويصادم مسلمات العقول، بل - واللَّه - قد اشتملت على الكفر البَوَاح والشِّرك الصُراح الذي تقْشَعِرُّ عند ذكره جلود الذين آمنوا، فقد نسبوا إلى الأولياء كلَّ ما يختصُّ باللَّه تعالى من التَّصرف المُطلق في الكون!!، وأنهم يملكون مفاتيح العالم!! وأنهم يُحْيُونَ الميت!!، ويشْفُون العَليل!!، ويعلمون جُزئيات الغيب المكنون!!، ويطلعُون على ضمائر الناس!!، فهم يعلمون خائِنَةَ الأعْين وما تُخفي الصُّدور!!، وأنهم يطلعون على اللوح المحفوظ!!، وأن لهم الأمر كلَّه من قبل ومن بعد!!، أضف إلى ذلك ما في تلك الكتب الملفَّقة من السُخف والخَرَفِ والتَّدْجِيل، ففلان من الأولياء سجد لله سَنَة!!، وآخرُ من الصالحين كان يمشي عُرْيانًا ويَخْطب الجمعة بالناس كذلك، وثالثٌ ورابعٌ من ذلك التلفيق الذي لا يرُوجُ مثله إلا في أزمنةِ الجهل وغياب العلم، ولا يقْبَله من له أدنى مثقالُ ذرَّةٍ=

= من سلامة الدين وصحة العقل، والواقع أن هذه الحكايات الملفقة هي في الحقيقة مساءةٌ لأولياء اللَّه تعالى وتنقص لهم، واللَّه المستعان وهو المؤمل في أن يحفظ علينا أديانا وعقولنا.

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه تلبيس إبليس (ص٤٦٢): «وقد لَبَّسَ إبليس على قوم من المتأخرين فوَضَعُوا حكاياتٍ في كرامات الأولياء ليَشِيْدُوا - بزعمهم - أمرَ القوم، والحقُّ لا يحتاج إلى تشْيِيْدٍ بباطل، فكَشَفَ اللَّه تعالى أمرهم بعلماء النَّقل... وقد انْدَسَّ في الصوفية أقوامٌ وتشبَّهُوا بهم وشَطَحُوا في الكرامات وادِّعائِها وأظْهَرُوا للعوامِّ مَخَارِيقَ صادُوا بها قلوبهم».

ويقول العلامة الآلوسي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره المسمَّى روح المعاني (٢٤/ ١١): «وقد رأينا كثيرًا من الناس على نحو هذه الصِّفة التي وصف اللَّه تعالى بها المشركين، يَهُشُّون لذكْر أمواتٍ يستغيثون بهم، ويطلُبُون منهم من سماعَ حكاياتٍ كاذبة عنهم، تُوافق هواهم واعتقادَهم فيهم، ويعظِّمون مَن يحكي لهم، وينْقبضون من ذكر اللَّه تعالى وحده!!، ونسبةِ الاستِقْلال بالتَّصرف إليه ﷻ!!، وسرْد ما يدل على مزيد عظمته وجلاله!!، وينفرون ممن يفعل ذلك كل النُّفرة!!، وينسبونه إلى ما يكره!!، وقد قلت يوما لرجل يستغيث - في شدة - ببعض الأموات وينادي: يا فلان أغثني، فقلت له: قل يا للَّه، فقد قال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فغضب. وبلغني أنه قال: فلان منكرٌ على الأولياء!!. وسمعت عن بعضهم أنه قال: الوليُّ أسرعُ إجابة من اللَّه ﷻ!! وهذا من الكفر بمكان نسأل اللَّه تعالى أن يعصمنا من الزيغ والطغيان».

ويبين الإمام الصنعاني رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالته (الإنصاف في حقيقة الأولياء ومالهم من الكرامات والألطاف) أن أكثر ما يشيعه العوام وأشباههم من الكرامات هو من الكذب الملفق والإفك المختلق فيقول (ص٢٥): «إن أكثر الكرامات التي شَاعَت بين العوامِّ وحَازَت على عقول الخواصِّ كذبٌ من العوامِّ الذين هم فتنة دين=

خلقِ اللَّه تعالى على الأحياء والأموات، والنُّفُوس مولَعَةٌ بقضاء حوائجها وإزالة ضروراتها، ويُسمع بأن قبر فلان ترياقٌ مجرب. والشيطان له تَلَطُّفٌ في الدعوة، فيدعُوهُم أولًا إلى الدعاء عنده فيدعو العبد بحُرقةٍ وانكسارٍ وذلةٍ، فيُجِيبُ اللَّه دعوتَه لِمَا قام بقلبه لا لأجل القبر، فإنه لو دعاه كذلك في الحانة والخمارة والحمام والسوق أجابه، فيَظُنُّ الجاهلُ أن للقبر تأثيرًا في إجابة تلك الدعوة!! واللَّه سبحانه يُجيب دعوة المضطر ولو كان كافرًا، وقد قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

= الإسلام، أتباعُ كلِّ نَاعِقٍ لم يستضيئُوا بنور العلم، وهم الهَمَجُ الرَّعَاع - كما قال أمير المؤمنين علي ﷺ في كلامه لكميل بن زياد - ولكن نَفَذَ كلام العوامُّ فصار العلماءُ لهم اتباعًا ولأقوالهم أشياعا، يؤلِّفُون ترويجًا لما يروُوْنَه من الكَذِبات وينحَلُون لهم في التصانيف بَوَارِدَ الدلالات!!... ولا إله إلا اللَّه ما أشدَّ ضررَ العالِم المعروف بين الأنام إذا روَّج لهم الأباطيل، وزخْرَفَ لهم باطل الأقاويل، ويحاولُ إجراءَها على سَنَنِ السُّنة، وتَنْزِيلِها منزلةَ التَّنْزِيل، فيصدِّق الكذبَ المُحَال عقلًا وشرعًا، ويؤلِّفُ في صحَّتِها لتكون لمن يأتي بعده أصلًا متَّبعًا، فإذا أراد العالِم بالكتاب والسنة أن يبيِّن بطلان تلك الأساطيرَ صَدَمَهُ الجاهلُ ورد عليه بقوله قد قال: بصحَّةِ هذا السُّيوطي وابنُ حجر الهيتمي وفلان الرملي وفلان وفلان!! فأين يقعُ من هؤلاء الأعيان؟! وقد سَخِرَ به العوامُّ يقولون: أنكر كرامات الصالحين الأعلام!! ولله الكلمة العلوية: (اعرف الحقَّ تعرفْ أهلَه) لكن أين من يتأهَّلُ للخطاب ويسمع أو يعقل!! إن هم إلا كالدَّوابِّ» إلا من هدى اللَّه وأيقظ.

وقد قال الخليل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

فليس كلُّ من أجاب اللَّه دعاءه يكون راضيًا عنه، ولا محبًا له، ولا راضيًا بفعله، فإنه يُجيب البَرَّ والفاجر والمؤمن والكافر، وكثيرٌ من الناس يدعو دعاءً يعتدي فيه، أو يشترط في دعائه، أو يكون مما لا يجوز أن يُسأل، فيحصل له ذلك أو بعضه، فيظُنُّ أن عمله صالح مرضي لله!! ويكون بمنزلة من أُمليَ له، وأُمِدَّ بالمال والبنين وهو يظن أن اللَّه تعالى يُسارع له في الخيرات وقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤].

فالدُّعاء قد يكون عبادة فيُثاب عليه الداعي، وقد يكون مسألةً تُقضى به حاجتُه ويكون مضرةً عليه، إما أن يُعاقب بما يحصل له أو تنقص به درجتُه فيقضي حاجتَه ويعاقبه على ما جَرَأَ عليه من إضاعةِ حقوقِه واعتداءِ حدودِه.

[تلطف الشيطان وتدرجه في إضلال الخلق وإيقاعهم في الشرك]

والمقصودُ: أن الشيطان بلطْفِ كيْدِهِ يحسِّن الدَّعاء عند القبر، وأنه أرجحُ منه في بيته ومسجده وأوقات الأسحار، فإذا تقرر ذلك عنده نقلَهُ درجةً أُخرى من الدعاء عنده إلى الدعاء به والإقسام على اللَّه به، وهذا أعظم من الذي قبله، فإن شأن اللَّه أعظم من أن يُقسَم عليه

أو يُسْأَلَ بأحدٍ من خلْقِه.

وقد أنكر أئمةُ الإسلام ذلك فقال أبو الحسين القدوري في شرح كتاب الكرخي: قال بشر بن الوليد سمعت أبا يوسف يقول قال أبو حنيفة: لا ينبغي لأحدٍ أن يدعوَ اللَّه إلا به. قال: وأكرهُ أن يقول: أسألك بمعْقِدِ العِزِّ من عرشِك، وأكره أن يقول: بحقِّ فلان، وبحقِّ أنبيائك ورسلك، وبحقِّ البيْت الحرام. قال أبو الحسين: أما المسألةُ بغير اللَّه فمنكرةٌ في قولهم لأنه لا حقَّ لغير اللَّه عليه، وإنما الحق لله على خلقه، وأما قوله: بمَعْقِدِ العِزِّ من عرشك فكرهه أبو حنيفة، ورخَّصَ فيه أبو يوسف وقال: ورُوِيَ أن النبي ﷺ دعا بذلك، قال: ولأن مَعْقِدَ العِزِّ من العرش إنما يُراد به القدرة التي خلق اللَّه بها العرش مع عظمته فكأنه سأله بأوصافه.

وقال ابن بلدجي في شرح المختار: ويُكره أن يدعوَ اللَّه تعالى إلا به فلا يقول: أسألك بفلان أو بملائكتك أو بأنبيائك ونحو ذلك، لأنه لا حق للمخلوق على خالقه، أو يقول في دعائه: أسألك بمعقد العز من عرشك، وعن أبي يوسف جوازه، وما يقول فيه أبو حنيفة وأصحابه: أكره كذا هو عند محمد حرام، وعند أبي حنيفة وأبي يوسف هو إلى الحرام أقرب، وجانب التحريم عليه أغلب.

وفي فتاوى أبي محمد بن عبد السلام: أنه لا يجوز سؤالُ اللَّه سبحانه بشيء من مخلوقاته لا الأنبياء ولا غيرهم، وتوقَّف في نبينا ﷺ

لاعتقاده أن ذلك جاء في حديث، وأنه لم يعرف صحة الحديث.

فإذا قَرَّرَ الشيطان عنده أن الإقسامَ على اللَّه به والدعاءَ به أبلغُ في تعظِيْمِهِ واحترَامِهِ وأنجعُ في قضاء حاجته نقلَهُ درجةً أخرى إلى دعائه نفسه من دون اللَّه، ثم ينقلُهُ بعد ذلك درجةً أخرى إلى أن يَتَّخِذَ قبرَه وثنًا، يَعكف عليه، ويوقد عليه القنديل، ويعلق عليه الستور، ويبني عليه المسجد، ويعبده بالسجود له، والطواف به، وتقبيله واستلامه، والحج إليه، والذبح عنده، ثم ينقُلُهُ درجةً أخرى إلى دعاءِ الناس إلى عبادته، واتخاذِه عيدًا ومنسكًا وأن ذلك أنفعُ لهم في دنياهم وآخرتهم.

[ابن تيمية يبين مراتب الأمور غير المشروعة عند القبور]

قال شيخنا قدس اللَّه روحه: وهذه الأمور المُبْتَدَعَةُ عند القبور مراتبٌ:

أبعدُها عن الشرع: أن يَسأل الميتَ حاجتَه ويستغيثَ به فيها، كما يفعله كثيرٌ من الناس، قال: وهؤلاء من جنس عُبَّاد الأصنام، ولهذا قد يَتمثَّل لهم الشيطانُ في صورة الميتِ أو الغائب[1] كما يتمثَّل لعبَّاد

---

(١) وكثيرٌ من المعظِّمين للقبور يحتجُّ بما يظنه من أن الوَلي ربما خَرَجَ من قبره وأغاثه في كربته، أو خَاطَبه بما يَسألُه عنه من المغيَّبات أو مَدَّ له يدَه من قبره يصافحه أو نحو ذلك، وما دَرَى المسكين أن كثيرًا من هذا هو من عَبَثِ الشياطين به وإضلاله، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ مبينًا احتجاج كثير من الناس بذلك فيما=

الأصنام، وهذا يحصل للكفار من المشركين وأهل الكتاب، يدعو أحدُهم من يعظِّمُهُ فيتمثَّلُ له الشيطان أحيانًا، وقد يخاطبهم ببعض الأمور الغائبة، وكذلك السجود للقبر والتمسح به وتقبيله.

المرتبة الثانية: أن يَسْأَلَ اللهَ ﷻ به، وهذا يفعله كثيرٌ من المتأخرين، وهو بدعة باتفاق المسلمين.

الثالثة[1]: أن يسأَلَهُ نفسَه.

= يقعون فيه من الشرك بالأولياء في تلخيص كتاب الاستغاثة (٢/ ٤٨٠): «وحُجَّتُهم أن طائفةً من الناس استغاثوا بحي أو ميت فرأوه قد أتى في الهواء وقضى بعض تلك الحوائج، وأخبر ببعض ما سُئِل عنه وهذا كثيرٌ واقعٌ في المشركين الذين يدعون الملائكة والأنبياء والصالحين والكواكب والأوثان فإن الشياطين كثيرًا ما تَتَمَثَّلُ لهم فيرونها، قد تُخاطِبُ أحدَهم ولا يراها، ولو ذكرتُ ما أعلم من الوقائع الموجودة في زماننا من هذا لطال هذا المقام، و كلما كان القوم أعظمُ جهلًا وضلالًا كانت هذه الأحوال الشيطانية عندهم أكثر، وقد يأتي الشيطان أحدَهم بمالٍ أو طعامٍ أو لباسٍ أو غير ذلك وهو لا يرى أحدًا أتاه به فيَحسبُ ذلك كرامةً و إنما هي من الشيطان، و سببُه شركُه باللَّه تعالى وخروجُه عن طاعة اللَّه ورسوله إلى طاعة الشياطين فأضلتهم الشياطين بذلك، كما كانت تُضِلُّ عُبَّادَ الأصنام، و مثلُ هذه الأحوال لا تكون من كرامات أولياء اللَّه تعالى».

(١) **قلت**: المرتبة الثالثة هي طلب الدعاء من المقبور بمعنى أن يأتي إلى قبره ويطلب منه أن يدعو اللَّه له معتقداً أنه يمكنه ذلك كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه اللَّه تعالى- كما جاء في تلخيص الاستغاثة ص ١٤٦: (المرتبة الثالثة : أن يسأل صاحب القبر أن يسأل اللَّه له وهذا بدعة باتفاق أئمة المسلمين) . وقال في زيارة القبور ص٢٥ : (وأما الميت من الأنبياء والصالحين وغيرهم فلم يشرع لنا أن نقول له : ادع لنا ، ولا اسأل لنا ربك ، ولم يفعل هذا أحد من الصحابة=

الرابعة: أن يظُنَّ أن الدعاءَ عند قبرِه مستجابٌ، أو أنَّه أفضلُ من الدعاء في المسجد، فيقصد زيارته والصلاة عنده لأجل طلب حوائِجِه، فهذا أيضًا من المنكرات المبتدعة باتفاق المسلمين، وهي محرمةٌ. وما علمت في ذلك نزاعًا بين أئمة الدين، وإن كان كثيرٌ من المتأخرين يفعل ذلك، ويقول بعضهم: قبر فلان تِرْيَاقٌ مُجَرَّب.

[بيان كذب الحكاية المنقولة عن الشافعي في أنه كان يقصد قبر أبي حنيف للدعاء عنده]

والحكايةُ المنقولةُ عن الشَّافعِي: أنَّه كان يقصِد الدُّعاء عند قبر أبي حنيفة من الكذبِ الظَّاهر[1].

= والتابعين، ولا أمر به أحد من الأئمة، ولا ورد فيه حديث، بل الذي ثبت في الصحيح أنهم لما أجدبوا زمن عمر ﷺ استسقى بالعباس وقال: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون، ولم يجيئوا إلى قبر النبي ﷺ قائلين: يا رسول اللَّه أدع اللَّه لنا، واستسق لنا، ونحن نشكو إليك مما أصابنا ونحو ذلك، لم يفعل ذلك أحد من الصحابة قط، بل هو بدعة ما أنزل اللَّه بها من سلطان).

(١) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ مبينًا بُطلان هذه الحكاية المنسوبة للإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في اقتضاء الصراط (١/ ٣٤٢): «مثل ما حَكى بعضهم عن الشافعيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: إذا نزلتْ بي شدةٌ أَجِيءُ فأدْعو عند قبرِ أبي حنيفة فأُجابُ أو كلامًا هذا معناه، وهذا كذبٌ معلومٌ كذبُه بالاضطِرَارِ عند من له أدنى معرفةٌ بالنَّقل، فإن الشافعي لما قدم ببغداد لم يكن ببغداد قبرٌ يُنتاب للدعاء عنده البتة، بل ولم يكن هذا على عهد الشافعي معروفًا، وقد رأى الشافعي بالحجاز واليمن والشام والعراق ومصر من قبور الأنبياء والصحابة والتابعين من كان أصحابها عنده=

فَصْلٌ

في الفرق بين زيارة الموحدين للقبور وزيارة المشركين

أمَّا زيارةُ الموحِّدين فمقصودُها ثلاثةُ أشياء:

أحدُها: تذكُّر الآخرة، والاعتبار والاتعاظ، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله: «**زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة**».

الثاني: الإحسانُ إلى الميت، وأن لا يطول عَهْدُهُ به فيهجره ويتناساه، كما إذا ترك زيارة الحيِّ - مدة طويلة - تناساه، فإذا زار الحيَّ فرح بزيارته وسُرَّ بذلك، فالميت أولى لأنه قد صار في دارٍ قد هَجَرَ أهلَهَا إخوانُهم وأهلُهم ومعارفُهم، فإذا زاره وأهدى إليه هديةً من دعاءٍ أو صدقةٍ أو أهدى قربة ازداد بذلك سروره وفرحه كما يُسَرُّ الحَيُّ بمن يزوره ويهدي له، ولهذا شَرَعَ النبي ﷺ للزائرين أن يدعوا لأهل القبور بالمغفرة والرحمة وسؤال العافية فقط، ولم يَشْرَع أن يدعوهم، ولا أن يدعوا بهم، ولا يصلي عندهم.

الثالث: إحسانُ الزائر إلى نفسه باتِّباع السُنَّةِ، والوُقُوفِ عند ما

= وعند المسلمين أفضل من أبي حنيفة وأمثاله من العلماء، فما باله لم يتوخَّ الدعاء إلا عند قبر أبي حنيفة؟!. وإنما يَضَعُ مثلَ هذه الحكايات من يَقِلُّ عِلْمُه ودينُه».

شرعه الرسول ﷺ، فيُحْسِنُ إلى نفسه وإلى المَزُور.

[أصل الزيارة الشركية ماخوذ عن عباد الأصنام]

وأما الزِّيارةُ الشِّركيَّةُ فأصلُها مأخوذٌ عن عُبَّاد الأصنام، قالوا: الميِّتُ المُعَظَّمُ الذي لِروحِهِ قُربٌ ومنزلةٌ ومزيَّةٌ عند اللَّه تعالى لا يَزالُ تأْتِيْه الألْطافُ من اللَّه تعالى، وتَفِيْضُ على روحِهِ الخَيْرات، فإذا علَّقَ الزَّائِرُ رُوْحَهُ به وأدْنَاهَا منْه فاض من روح المَزُور على روح الزَّائِرِ من تلك الألْطاف بواسطتها، كما يَنْعَكِسُ الشُّعَاعُ من المِرْآة الصَّافية والماء ونحوه على الجسم المقَابِل له.

قالوا: فتمامُ الزِّيارة أن يتوجَّه الزائرُ بروحه وقلبه إلى الميت!! ويعْكِفَ بهمَّته عليه!! ويُوجِّه قصدَه كلَّهُ وإِقْبالَه عليه!! بحيث لا يبقى فيه الْتِفَاتٌ إلى غيره!! وكلَّما كان جَمعُ الهمَّة والقلب عليه أَعْظَمَ كان أقربَ إلى انتفاعه به!!

وقد ذكر هذه الزيارةَ على هذا الوجه ابنُ سِيْنَا والفَارابي وغيرهُما، وصرح بها عُبَّادُ الكواكب في عبادتها، وقالوا: إذا تعلَّقت النفسُ الناطقةُ بالأرواح العلوية فَاضَ عليها منها النُّور، وبهذا السِّرِّ عُبدت الكواكبُ، واتُّخذتْ لها الهَيَاكِل، وصُنِّفَتْ لها الدعوات، واتُّخِذَتْ الأصنام المجسَّدة لها. وهذا بعيْنِهِ هو الذي أوجَبَ لعُبَّاد القبور اتِّخَاذَها أعيادًا، وتعليق السُّتُور عليها، وإيقاد السُّرُج عليها، وبناءَ المساجد عليها، وهو الذي قَصَدَ رسولُ اللَّه ﷺ إبطالَه ومحْوَهُ

بالكُلِّيَّة، وسَدَّ الذَّرائعِ المفْضِيَةِ إليه، فوقف المشركون في طريقه، وناقضوه في قصده، وكان ﷺ في شِقٍّ وهؤلاء في شِقٍّ.

وهذا الذي ذكره هؤلاء المشركون في زيارة القبور هو الشفاعة التي ظَنُّوا أن آلهتهم تنفعهم بها، وتَشْفَعُ لهم عند اللَّه تعالى.

قالوا: فإنَّ العبد إذا تعلَّقَتْ رُوْحُه بروح الوَجِيْه المُقَرَّب عند اللَّه وتوجَّه بهمَّتِهِ إليه وعكف بقلبه عليه صار بينه وبينه اتِّصال يَفيضُ به عليه منه نصيبٌ مما يحصل له من اللَّه، وشبَّهُوا ذلك بمن يخدم ذا جَاهٍ وحَظْوَةٍ وقُرْبٍ من السُّلطان، فهو شديد التَّعَلُّقِ به، فما يَحصُلُ لذلك السُّلطان من الإنْعَامِ والإفْضَال يَنَالُ ذلك المتعلِّق به بحسب تعلُّقِهِ به.

فهذا سِرُّ عبادة الأصنام[1] وهو الذي بَعَثَ اللَّه رسلَه وأنزل كتبَه

(١) ومقصوده رَحِمَهُ اللَّهُ أن الأصنام إنما عُبدَت بقصد طلب الشفاعة من الأنبياء والصالحين الذين وُضعت تلك الأصنام على صورهم، فهم بتعظيمهم للأصنام لم يكونوا يعظِّمُون أحجارًا يصنعونها بأيديهم إنما كانوا يعظِّمُون من وُضعت تلك الأصنام على صُوَرِهم من الأنبياء والصالحين وهم من يطلبون شفاعتهم عند اللَّه تعالى، ولذلك لما ذكر الرازي في تفسيره (١٧/ ٤٩) مقاصدَ المشركين من معبوداتهم ذَكَرَ منها: «أنهم وَضَعُوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم، وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإن أولئك الأكابرَ تكون شفعاءَ لهم عند اللَّه تعالى» قال: «ونَظِيرُه في هذا الزمان اشتغالُ كثيرٍ من الخلق بتعظِيمِ قُبور الأكابر، على اعتقادِ أنهم إذا عظَّمُوا قبورَهم فإنهم يكونون شُفَعَاءَ لهم عند الله».

بإبطاله، وتكْفِيرِ أصحابه ولعنهم، وأباح دماءهم وأموالهم، وسَبْيَ ذراريهم، وأَوْجَبَ لهم النار، والقرآنُ من أوَّلِهِ إلى آخِرِهِ مَمْلُوءٌ من الرَّد على أهله وإبْطال مذهبهم.

قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٣-٤٤].

فأَخْبَرَ أن الشَّفاعةَ لمن له ملك السموات والأرض وهو اللَّه وحدَه فهو الذي يَشْفَعُ بنفسِهِ إلى نفسه ليرْحَم عبَده، فيَأْذَنُ هو لمن يشاء أن يَشْفَعَ فيه، فصارت الشَّفاعةُ في الحقيقة إنما هي له، والذي يشْفَعُ عنده إنما يشفع بإذنه له وأمره، بعد شفاعته - سبحانه - إلى نفسه، وهي إرادتُه من نفسه أن يرحم عبده، وهذا ضدُّ الشفاعة الشِّركية التي أثبتها هؤلاء المشركون ومن وافقهم، وهي التي أبطلها اللَّه سبحانه في كتابه بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١].

وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ

﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤].

فأخبر سبحانه أنه ليس للعباد شَفِيْعٌ من دونه، بل إذا أراد اللَّه سبحانه رحمة عبده أَذِنَ هو لمن يَشْفَعُ فيه كما قال تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: ٣].

وقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فالشفاعةُ بإذنه ليست شفاعةً من دونه، ولا الشَّافع شفِيْعٌ من دونه، بل شفيعٌ بإذنه.

والفَرقُ بين الشَّفيعيْن كالفَرق بين الشريك والعبد المأمور، فالشَّفاعة التي أبطلها اللَّه شفاعة الشريك فإنه لا شريك له، والتي أثبتها شفاعةُ العبد المأمور الذي لا يَشْفَعُ ولا يَتَقَدَّمُ بين يَدَيْ مَالِكِه حتى يأْذَنَ له ويقول: اشفع في فلان. ولهذا كان أسعدُ النَّاس بشفاعة سيد الشُّفَعَاء يوم القيامة أهلَ التوحيد، الذين جرَّدُوا التوحيد وخلَّصُوه من تَعَلُّقَات الشِّرك وشَوَائِبِهِ، وهم الذين ارتضى اللَّه سبحانه قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء ٢٨].

وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

[بطلان طلب الشفاعة من غير اللَّه تعالى قياسًا على الخلق]

فأخبر أنه لا يحصل يومئذ شفاعةٌ تنْفع إلا بعْدَ رِضَاءِ قولِ المشْفُوعِ.

له وإِذْنِهِ للشَّافع فيه، فأما المشرك فإنه لا يرتَضِيْهِ ولا يَرضَى قوله فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه، فإنه سبحانه علَّقَهَا بأمرين: رضاهُ عن المشفوع له، وإذنُه للشافع، فما لم يوجد مجموعُ الأمرين لم تُوجَد الشَّفاعة.

وسِرُّ ذلك: أن الأمر كلَّه لله وحده، فليس لأحدٍ معه من الأمر شيءٌ، وأعْلَى الخلق وأفضلُهم وأكرمُهم عنده هم الرُّسلُ والملائكةُ المقربون، وهم عبيدٌ مَحْضٌ لا يسْبقُونه بالقول، ولا يتقدَّمُون بين يديه، ولا يفعلون شيئًا إلا بعد إذنه لهم وأمرهم، ولا سيَّما ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [الانفطار: ١٩]. فهم مملُوكُون مَرْبُوبُون، أفعالُهم مقيَّدةٌ بأمْره وإذنه، فإذا أشْرَك بهم المشْركُ، واتَّخذَهُم شفعاءَ من دونه، ظنًّا منه أنه إذا فَعَلَ ذلك تقدَّمُوا وشفعُوا له عند اللَّه فهو من أجْهَلِ الناس بحقِّ الرَّب - سبحانه -، وما يَجِبُ له ويمْتَنِع عليه، فإنَّ هذا مُحَالٌ ممتنعٌ، شَبِيْهُ قِيَاسِ الرَّب تعالى على المُلُوك والكبراء، حيث يَتَّخذُ الرَّجُلُ من خواصِّهم وأوليائِهم من يشفع له عندهم في الحوائج، وبهذا القياس الفاسد عُبدت الأصنام، واتَّخَذَ المشركون من دون اللَّه الشفيع والولي، والفرقُ بينهما هو الفرق بين المخلوق والخالق، والرب والمر بوب، والسيد والعبد، والمالك والمملوك، والغنيُّ والفقير، والذي لا حاجةَ به إلى أحدٍ قط والمحتاجُ من كل وجهٍ إلى غيره.

فالشُّفعاءُ عند المخلوقين هم شركاؤُهم، فإنَّ قِيَام مصالحِهِم

بهم، وهم أعوانُهُم وأنصارُهُم الذين قيامُ أمرِ الملوكِ والكبراءِ بهم، ولولاهُم لما انْبَسَطَتْ أيديهم وألسنتُهم في الناس، فلحاجتِهِم إليهم يحتاجُون إلى قَبول شفاعتهم وإن لم يأذنُوا فيها ولم يرضَوا عن الشافع، لأنهم يخافُون أن يردُّوا شفاعَتَهم فتَنْتَقِض طاعتُهم لهم ويذهبون إلى غيرهم، فلا يجِدُون بُدًّا من قَبُول شفاعتهم على الكره والرضى[1]، فأما الغَنيُّ الذي غِنَاهُ من لوازم ذاتِه، وكلُّ ما سواه فقيرٌ

---

(١) يقول الشيخ الدهلوي رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالة التوحيد (ص٧٦) معلقًا على قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]:

«قد جرت العادةُ أن من يَقضي حاجةَ من يستصْرخه ويغيثه إما أن يكون سيدًا وصاحبَ الأمر، وإما أن يكون شريكًا له سلطانٌ عليه أو دَالَّةٌ عنده، فملوكُ الأرض يَنْزِلون عند رغبةِ أمرائهم، ويحقِّقُون طلبَهم، فإنهم أعوانُهم ودعائِمُ ملكِهِم، فإذا سخِطُوا أو حقَدُوا عليهم تزلزَل ملكُهم واضطَرب أمرُهم، وإما أن يشْفَعَ إلى الملك أحدُ المقربين إليه والذين لهم حَظْوةٌ عنده فيُحقِّق رغبتَهم طوعًا وكرهًا، وقد يفعل ذلك من غير رضىً وطواعية، نفس شأن بِنْتٍ من بنات الملك المدَلَّلَة أو إحدى زوجاته الحَظِيَّات فلا يستطيع الملك أن يرفض شفاعتَها فيقْبَلُها.

ولا يُقاس اللَّه ﷻ على ملوك الدنيا في قَبُول الشفاعات وإرضاء أهل الوجاهة والنفوذ، أما أولئك الذين يستغيث بهم هؤلاء الجُهال ويطلبون منهم قضاء حاجاتهم فلا يملكون حَبَّةَ من شَعيرٍ ولا شيئًا من نقير أو قطمير في السماوات والأرض، وما لهم فيهما من شِرْك، وليسُوا من دعائِمِ ملك اللَّه ولا عَضُدَه الأيمن - تعالى اللَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا - حتى يقبل شفاعتهم اضطرارًا واستسلامًا. =

= إنهم لا يملكون أن يشفعوا إلا بإذنه، ولا يستطيعون أن يحقِّقوا رَغَبَات المستشفعين بقوةٍ أو قهر، بل بالعكس من ذلك قد بلغ بهم العجزُ والفقرُ إلى أنه إذا توجَّه إليهم أمر من اللَّه أخذتهم المهابة، وفَقَدُوا رشدَهم، ويمنعهم الأدبُ والفَزَعُ عن مراجعة اللَّه، واستيضاح ما خُوطِبُوا به وأمُروا، بل أقْبَلَ بعضهم على بعض يتساءلون عن الحقيقة، فإذا تبين لهم الأمر ما زادوا على أن يقولوا: آمنا وصدقنا ، فضلًا عن معارضة الملك القاهر، وعن الدِّفاع عن أحدٍ أو الإدْلاء بدليل أو برهان، ثم قال: (أنواع الشفاعة التي لا مجال لها عند الله): وهنا يَحْسُنُ التَّفطُّن لنُكْتَةٍ دقيقة والتأمل فيها وهي: أن كثيرًا من الناس قد اعتمدوا على شفاعة الأنبياء والأولياء اعتمادًا زائدًا، وقد أساؤوا فهم معنى الشفاعة، فأدَّى ذلك إلى تناسي اللَّه ﷻ، والتَّشَاغُلِ عنه بخلقه.

فلتُعرف حقيقةُ الشفاعة في ضوء نصوص الكتاب والسنة، وما أثبتته الشريعة الإسلامية: لقد تعوَّدَ الملوك والأمراء ورجال الدنيا أنواعًا من الشفاعة، يلجؤون إليها عند الضرورة لمصالحهم الشخصية أو مصلحة من مصالح البلاد والرعية، نذكرها - أولًا - حتى يَعرفَ القارئُ الفَطِنُ الفرقَ بين هذه الأنواع من الشفاعة، وبين الشفاعة التي أثبتها القرآن، وبضِدِّها تتبيَّنُ الأشياء:

منها: أن رجلًا تحقَّقت عليه السرقةُ فشفَعَ له أميرٌ أو وزيرٌ إلى الملك فأطلَقَه الملكُ وصَفَحَ عنه، ولذلك أسبابٌ منها: أن الملك يريد أن يُعاقبَ السارقَ والقانون يأمر بذلك وهو يستحق العقوبة، ولكن الملك عَدَلَ عن رغبته، وصَفَح عن جريمة هذا المجرم لأن هذا الأمير هو دِعامةٌ قويةٌ من دعائم ملكه، وهو جمالُ مملكته وزينةُ بلاده، فيَعرِفُ الملك أن الأفضل في هذا المقام أن يملك نفسَه ويقهَرَ غضبَه ويصفحَ عن فردٍ ارتكب جريمة السرقة، فإنه إذا أسخَطَ هذا الأمير ورَفَض طلبَه اختَلَّتْ الأمور، واسْتَشْرَى الفسادُ في مملكته، وفَقَدَت الشيءَ الكثيرَ من بَهَائِها ومهابتها، وهذا النوع من الشفاعة يسمى شفاعة الوجاهة ومعلوم أنه لا مَسَاغَ=

إليه بذاته، وكلُّ مَن في السموات والأرض عبيدٌ له، مقهورون بقهْرِهِ، مَصَرَّفُونَ بمشيئته، لو أهلكهم جميعًا لم ينْقُص من عِزِّهِ وسلطانه وملكه وربو بيته وإلهِيَتِهِ مثْقالُ ذرَّة، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ

= لهذا النوع من الشفاعة عند اللَّه ولا مجالَ له، فمن رجا من نبيٍّ أو وليٍّ أو إمام أو شهيد أو ملك أو شيخٍ مثل هذه الشفاعة، ونظر إليه كشفيع تُقبل شفاعته لا محالة، لِعِظَمِ جَاهِهِ وعُلوِّ منزلتِهِ فقد أَوْغَل في الشِّرك والجهالةِ فإنه لم يقدر اللَّه قدرَه، وما شمَّ رائحة العلم والمعرفة.

والنوع الثاني: أن يقوم أحدٌ من أبناء الملك أو عَقِيْلاتِهِ أو زوجاتِه أو من أُوْلِع بحبه الملك بشفاعة هذا السارق، ويحول دونه ودون تنفيذ العقوبة إرهاقًا أو إجلالًا فيضْطَرُّ الملك إلى العفو عن هذا المجرم بدافعٍ من حب هذا الشافع وغرامِه، وهذا يُسمَّى شفاعة المحبَّة، فإنَّ هذا الملك رأى أنَّ كظْمَ الغَيْظِ في هذا المحل والعفوَ عن مجرمٍ واحدٍ خيرٌ مما يصيبه من الكَمَدِ والكآبة التي تحيط به وتكَدِّرُ صَفْوَ حياته إذا سخط عليه هذا المحبوبُ أو الحَظِيُّ وعاتبه وأعرض عنه، ففضَّل هذا الاستثناء وغضَّ الطرف عن هذا الجاني الناقض للقانون على تنغُّصِ الحياة وكَدَرِ العيش وقلق النفس، ومن المعلوم أنه لا مجال لهذا النوع كذلك في جنابه، ومن ظنَّ بأحدٍ أنه شفيعٌ عند اللَّه من هذا النوع فقد أشْبَهَ الأوَّل في الشِّرك والجهالة، فإن اللَّه ﷻ مهما خَصَّ عبدًا من عباده بنعمه وحُبِّهِ واجتِبَائِه ولقَّبَ أحدًا بالحبيب وآخرَ بالخليل وثالثًا بالكليم، ورابعًا بروح اللَّه والوَجِيْهِ ووصف بعض الملائكة بأنه رسولٌ كريم ومكينٌ وروحُ القدس أو الروح الأمين ولكن السَّيِّدَ هو السَّيِّدُ والعبدُ هو العبدُ، ولا يستطيع عبدٌ أن يتَخَطَّى العبوديةَ ويتعالى على ما قُدِّر له و وسم به من ذُلِّ الرِّق وسيَّمَا العبودية، فكما أنه يخضع لسيده طائعًا مسرورًا وهو يعطف عليه ويغمره برحمته، كذلك ينْخَلِعُ قلبُه وتفْطُر مرارةُ كبدِه من هيبتِهِ وجلالِهِ».

ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

وقال سبحانه في سيدة آي القرآن آيَةِ الكرسي: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [الزمر: ٤٤].

فأخبر أن حالَ مُلكه للسموات والأرض يُوجِب أن تكون الشفاعةُ كلُّها له وحده، وأن أحدًا لا يشفع عنده إلا بإذنه، فإنه ليس بشريكٍ بل مملُوكٌ مَحْضٌ بخلاف شفاعة أهل الدُّنيا بعضهم عند بعض. فتبيَّنَ أنَّ الشفاعة التي نفاها اللَّه -سبحانه- في القرآن هي هذه الشفاعة الشِّركية التي يعرفُها الناس ويفعلُها بعضهم مع بعض، ولهذا يُطلق نفيها تارةً بناءً على أنها هي المعروفةُ المشاهدةُ عند النَّاس، ويقيِّدُها تارةً بأنها لا تنْفع إلا بعد إذنه، وهذه الشفاعة - في الحقيقة - هي منه، فإنه الذي أَذِنَ، والذي قَبِلَ، والذي رَضِيَ عن المشفوع، والذي وفَّقَه لفعْلِ ما يستحقُّ به الشفاعةَ وقولِهِ.

فمتَّخِذُ الشَّفيع مُشْركٌ لا تنفعه شفاعتُه، ولا يُشفع فيه، ومُتَّخِذُ الرَّبِّ وحدَهُ إِلَهَهُ ومعبودَه ومحبُوبَهُ ومرجُوَّه ومخُوْفَه الذي يتقرب إليه

وحده ويطلب رضاه ويتباعد من سخطه هو الذي يأذنُ اللَّه - سبحانه - للشَّفيع أن يَشفع فيه قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٣-٤٤].

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

فبيَّن -سبحانه- أن المتَّخِذين شُفَعَاءَ مُشْركُون[1] وأن الشفاعة لا تحصل باتِّخاذِهم هم، وإنَّما تحصُل بإذنه للشَّافع ورِضَاه عن المشفوع له.

---

(١) يقول المؤلف في كتابه القيم مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٧٠):
«فإنه - سبحانه - نفى الشفاعةَ الشِّركيةَ التي كانوا يعتقدونها وأمثالهم من المشركين، وهي شفاعةُ الوسائِطِ لهم عند اللَّه في جَلْبِ ما ينفعهم ودفع ما يضرهم بذواتها وأنفسها بدون تَوَقُّفِ ذلك على إذن اللَّه ومرضاته لمن شاء أن يشفع فيه الشافع، فهذه الشفاعة التي أبْطَلَهَا اللَّه سبحانه ونفاها، وهي أصْلُ الشِّركِ كُلِّهِ، وقاعدَتُهُ التي عليها بِنَاؤُهُ وأَخْبِيَتُهُ التي يرجع إليها، وأثبَتَ - سبحانه - الشفاعةَ التي لا تكون إلا بإذن اللَّه للشافع ورضاه عن المشفوع قوله وعمله، وهي الشفاعةُ التي تُنال بتجْرِيدِ التَّوحيْد كما قال ﷺ: [أسْعَدُ النَّاس بشفاعتي من قال: لا إله إلا اللَّه خالصًا من قَلْبِهِ]، والشفاعةُ الأولى هي الشفاعة التي ظَنَّهَا المشركون، وجعلوا الشِّرْكَ وسيلةً إليها».

وسِرُّ الفرْقِ بين الشَّفاعتين: أنَّ شفاعةَ المخلوق للمخلوق وسؤالَه للمشفوع عنده لا يفتقر فيها إلى المشفوع عنده لا خلقًا ولا أمرًا ولا إذنًا، بل هو سببٌ محركٌ له من خارج، كسائِرِ الأسباب التي تُحركُ الأسباب، وهذا السَّببُ المُحَرِّكُ قد يكون عند المُتَحرَّك لأجله ما يوافِقُه، كمن يُشفع عنده في أمرٍ يُحبه ويرضاه، وقد يكون عنده ما يُخالفه، كمن يُشفع إليه في أمر يَكرهه، ثم قد يكون سؤالُه وشفاعتُه أقوى من المُعارِض فيَقْبل شفاعة الشافع، وقد يكون المُعارِضُ الذي عنده أقوى من شفاعة الشافع فيَرُدُّهَا ولا يقبلها، وقد يتعارض عنده الأمران فيبقى مترددًا بين ذلك المعارض الذي يُوجِبُ الرَّدَّ وبين الشفاعة التي تقْتضِي القبول، فيتوقف إلى أن يترجَّح عنده أَحَدُ الأمرين بمُرجِّح.

فشفاعةُ الإنْسان عند المخلوق مثْلِه هي سعيٌ في سبب منْفَصِلٍ عن المشفوع إليه، يحرِّكه به ولو على كُرْهٍ منه، فمنزلة الشفاعة عنده منزلَةُ من يأمُرُ غيرَه أو يُكْرِهُهُ على الفعل، إمَّا بقوَّةٍ وسُلْطَانٍ، وإما بما يُرغِّبُه، فلابد أن يَحْصُلَ للمشفوع إليه من الشافع إما رغْبَةٌ يَنْتَفِعُ بها، وإما رهبةٌ منه تَنْدَفعُ عنه بشفاعته، وهذا بخلاف الشفاعة عند الرَّبَّ - سبحانه - فإنه ما لم يَخْلُقْ شفاعةَ الشَّافع، ويأذنْ له فيها ويحبَّها منه ويرضى عن الشافع لم يُمكن أن تُوجد، والشَّافع لا يشفع عنده لحاجةِ الرَّبِّ إليه، ولا لرهْبتِه منه، ولا لرغْبتِهِ فيما لديه، وإنَّما يَشْفعُ عنده مُجردُ امتثالٍ

لأمْرِهِ وطاعةٌ له، فهو مأمورٌ بالشفاعة، مطيعٌ بامتثال الأمر. فإن أحدًا من الأنبياء والملائكة وجميع المخلوقات لا يَتَحرَّكُ بشفاعةٍ ولا غيرِها إلا بمشيئة اللَّه تعالى وخلقه.

فالرب ﷻ هو الذي يُحرِّك الشَّفيع حتى يشفع، والشَّفيعُ عند المخلوق هو الذي يُحَرِكُ المشْفُوعَ إليه حتى يَقْبَل، والشافع عند المخلوق مستغنٍ عنه في أكثر أُمُورَهَ، وهو في الحقيقة شريكُهُ ولو كان مملوكه وعبده، فالمشفوع عنده محتاجٌ إليه فيما يناله منه من النفع بالنصر والمعاونة وغير ذلك، كما أن الشافع محتاجٌ إليه فيما ينالُه منه من رزق أو نصرأو غيره، فكلٌ منهما محتاجٌ إلى الآخر.

ومن وفَّقَهُ اللَّه تعالى لفهْم هذا الموضع ومعْرفَتِهِ تبيَّن له حقيقةُ التَّوحيد والشرك، والفرقُ بين ما أثبتَه اللَّه تعالى من الشفاعة وبين ما نفاه وأبطله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

* * *

الفهرس

مقدمة ٥
[ذكر مبتدأ أمر الفتنة بالقبور فيمن مضى من الأمم السابقة والآثار في ذلك] ١٧
فصل: ومن أعظم مكايده التي كادَ بها أكثر الناس وما نجا منها إلا من لم يُردِ اللَّه تعالى فتنته ١٧
[تعظيم القبور سبب عبادة غير اللَّه تعالى] ٢٢
[الشرك بقبر الرجل الذي يُعتقد صلاحهُ أقربُ إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر] ٢٢
[الصلاة عند القبور تبركًا بها عين المحادة لله ورسوله ونقل الإجماع على النهي عنها] ٢٣
[النصوص والآثار في النهي عن اتخاذ القبور مساجد] ٢٥
[إبطال تعليل النهي عن الصلاة في المقابر بأنه لأجل النجاسة من عدة أوجه] ٢٧
[إيقاد السرج على القبور وسيلة إلى تعظيمها] ٣١
[الشيطان يدخل على المعظمين للقبور من باب تعظيم الصالحين] ٣٣
[حكم اتخاذ القبور أعيادًا زمانية أو مكانية] ٣٦
فَصْلٌ: ومن ذلك اتخاذها عيدًا ٣٦

[النصوص في النهي عن اتخاذ القبور أعيادًا] ٣٧
[تحريف نصوص السنة في ذلك وتفسيرها بنقيض مقصودها] ٤١
[مفاسد اتخاذ القبور أعيادًا] ٤٣
[طرف من أحوال المعظمين للقبور عند زيارتهم لها] ٤٥
[أبو الوفاء ابن عقيل يستنكر شرك المعظمين للقبور] ٤٧
[مقارنة بين هديه عليه الصلاة والسلام في شأن القبور وبين ما عليه المعظمون لها] ٤٩
[نتيجة المقارنة] ٥١
[قول أبي محمد المقدسي في المنع من اتخاذ السرج والمساجد على القبور] ٥٢
[من آثار السلف في النهي عن إبراز القبور] ٥٢
[من شدة الافتتان بالقبور أن القبوريين شرعوا لها حجًّا ووضعوا له مناسك تشبيهًا لها بالبيت الحرام] ٥٢
[مفاسد تعظيم القبور] ٥٤
[المعظمون للقبور أبطلوا المقصود من زيارة القبور وارتكبوا نقيضه] ٦٠
[زيارة القبور التي شرعها اللَّه وشرعها رسوله] ٦٠
[سبب نهيه ﷺ للرجال عن زيارة القبور في بادئ الأمر] ٦٢
[تجريد السلف للتوحيد وأمثلة ذلك] ٦٤
[تنصيص الأئمة الأربعة على أن الداعي عند القبر يستقبل للقبلة والحكمة في ذلك] ٦٤

[الميت قد انقطع عمله وهو بحاجة إلى دعاء الأحياء] ٦٥
[تبديل أهل البدع للمشروع في زيارة القبور وإحداثهم نقيضه] ٦٧
[لا يوجد حرف واحد من السنة ولا من فعل الخلفاء ولا غيرهم من الصحابة يؤيد بدع المعظمين للقبور] ٦٨
[من آثار السلف في نهيهم عن الاحتفاء بالقبور وتعظيمها] .. ٦٩
[لو ظفر المعظمون للقبور بقبر دانيال لفعلوا به نقيض ما فعله الصحابة] ٧١
[إنكار الصحابة لأمور هي دون ما يفعله المعظمون للقبور بكثير] ٧٢
[اختلاف أحوال الناس اليوم عما كان عليه السلف الصالحون] ٧٤
[العمل إذا جرى على خلاف السنة فلا عبرة به، ولا التفات إليه] ٧٦
فَصْلٌ: ومن أعظم مكايد الشيطان الأنصاب والأزلام ٧٨
[بيان معنى الأنصاب] ٧٩
[حكم الإسلام في المساجد المبنية على القبور] ٨٣
[إنكار السلف التمسح بحجر مقام إبراهيم الذي أمرنا أن نتخذ منه مصلى] ٨٦
[من أعظم الفتنة بالأنصاب فتنة أنصاب القبور التي هي أصل عبادة الأصنام] ٨٧
[أسباب افتتان عباد القبور بها مع العلم أن ساكنيها أموات

لا يملكون لهم ضرًّا ولا نفعا] ٩٣
[عباد القبور هم أكذب خلق اللَّه تعالى على الأحياء والأموات] ٩٤
[تلطف الشيطان وتدرجه في إضلال الخلق وإيقاعهم في الشرك] ٩٩
[ابن تيمية يبين مراتب الأمور غير المشروعة عند القبور] ... ١٠١
[بيان كذب الحكاية المنقولة عن الشافعي في أنه كان يقصد قبر أبي حنيف للدعاء عنده] ١٠٣
فَصْلٌ: في الفرق بين زيارة الموحدين للقبور وزيارة المشركين ١٠٤
[أصل الزيارة الشركية مأخوذ عن عباد الأصنام] ١٠٥
[بطلان طلب الشفاعة من غير اللَّه تعالى قياسًا على الخلق] . ١٠٨
الفهرس ١١٧

* * *